

ADIC Library  
BR 1600 TKX 1947 c.1  
AL-TAWBL, F. OSSAT AL-ADTHAAD AL-DUNI  
main  
3 8534 00926765 3



BR  
1  
T  
1

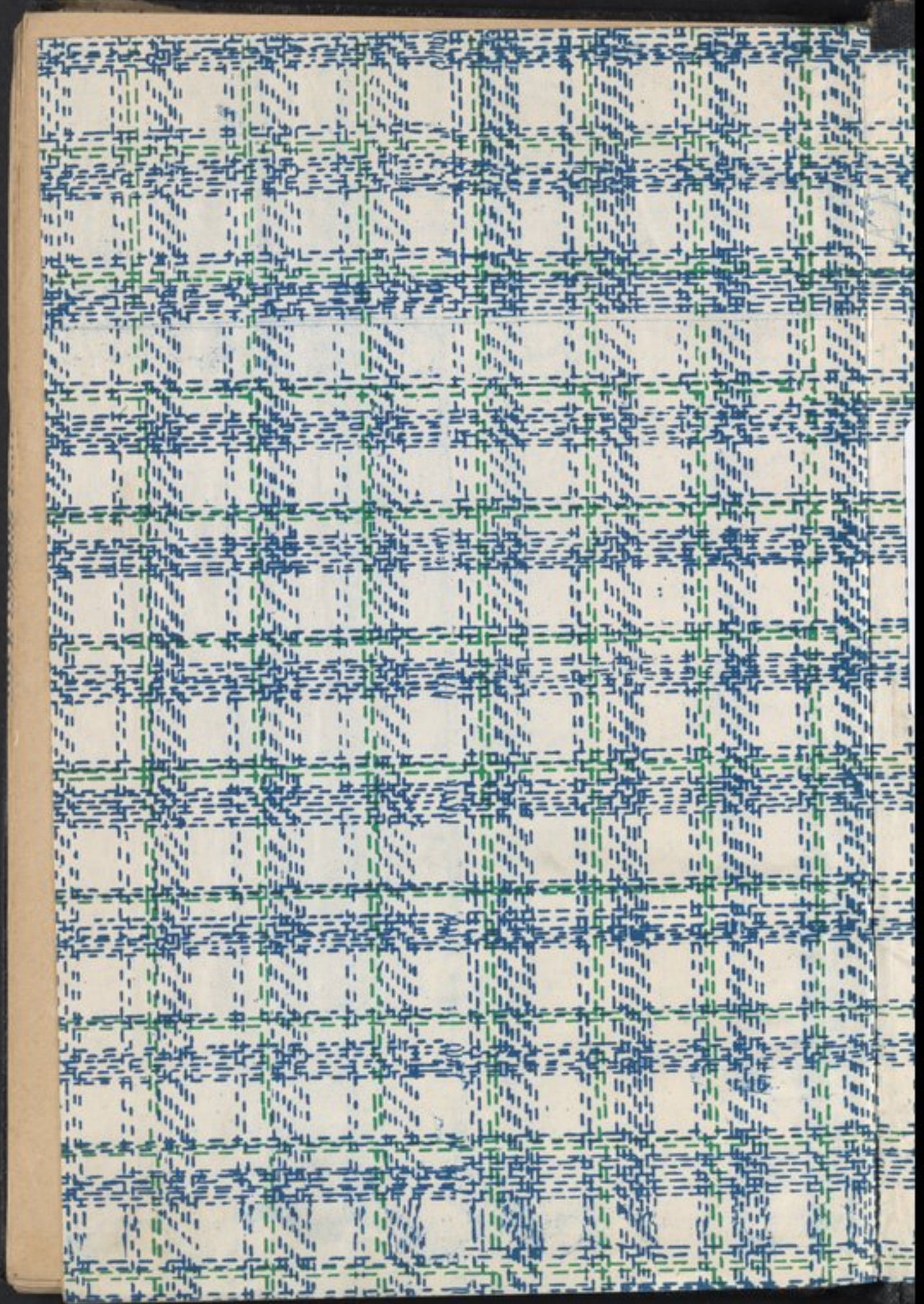




FROM THE  
LIBRARY OF  
THE  
AMERICAN UNIVERSITY  
IN  
CAIRO

من مكتبة  
الجامعة الامريكية بالقاهرة







RSITY

الجامع





BR

1600

T3x

1947

قصة

# الاضطهاد الديني

في المسيحية والإسلام

للككتور فيليكس الطويل



١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

دار الفكر العربي

مطبعة دار نشر الثقافة  
بالاسكندرية



٩٠٠٠  
٢٠٠٠

—



### اهراء الكتاب

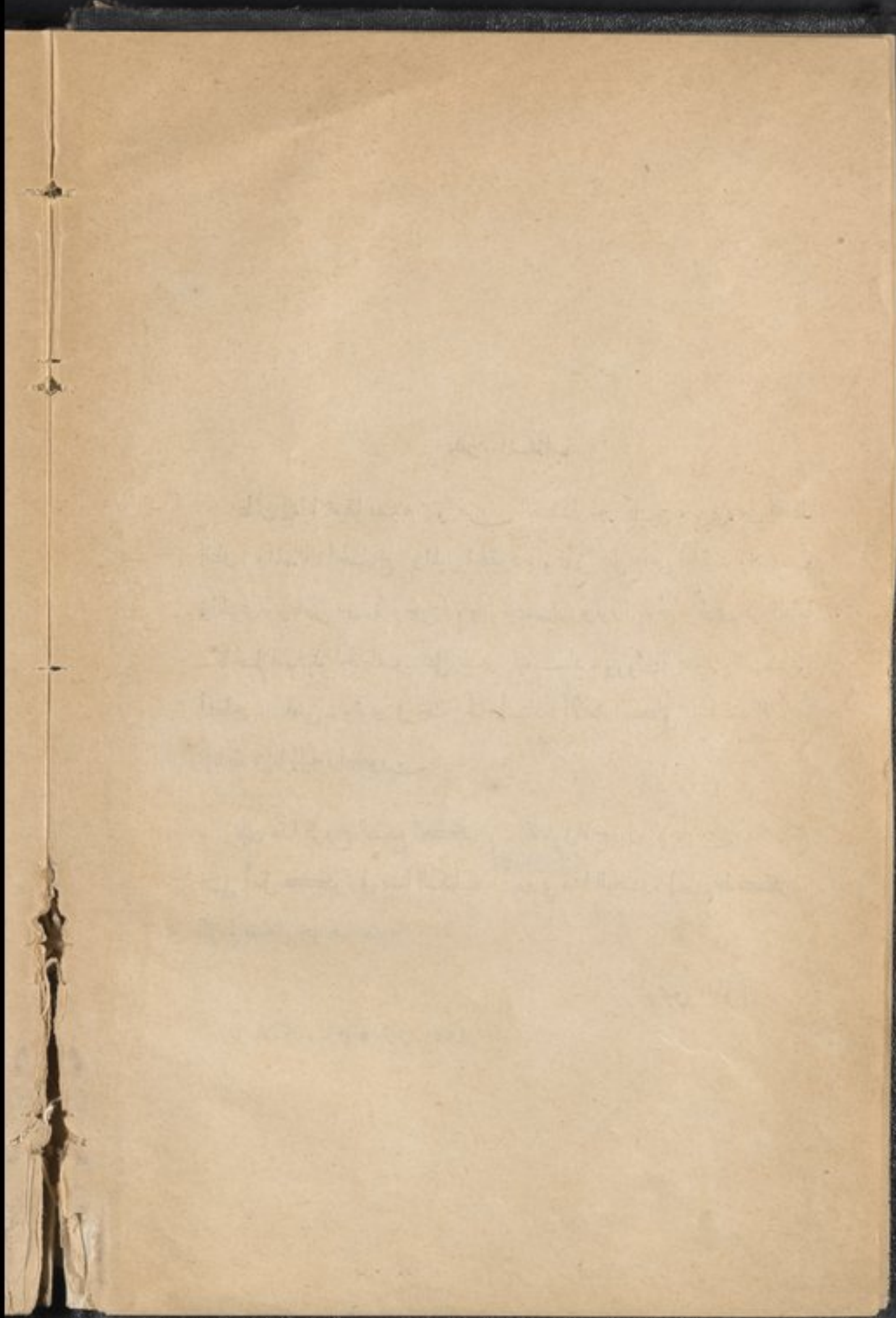
عاش إيماننا عميقاً يضئُهُ نورٌ من العلم غير ظنّين ، برىء من النفظ  
النابى والمسلك الجارح والميل الحقود ؛ وتأتى على داعى الحقد والتعصب  
والهوى ، وفاض سماحةً وجوداً ، وانبعث صفاءً ونوراً ؛ ثم توارى عن الدنيا  
- كالحلم الذى يذو الخاطف - على غير بيعاد ، وروءنا صوت الناعى  
المفاجىء : قضى - وثوى فى جنة الخلد أستاذنا الأكبر مصطفى باشا عبد الرازق  
فإننا لله وإنا إليه راجعون .

فإلى هذا الروح السمع الكريم - الذى زاوج بين الإيمان والتسامح  
فمثل أنبل فكرة فى هذا الكتاب - أهدي هذا البحث ، لإحياء تذكرى  
التي لم يتدمل جرحها بعد .

توفيق الطويل

رمل الاسكندرية فى ٥ مارس ١٩٤٧





*[Faint, illegible text, likely bleed-through from the reverse side of the page]*



قال فرعون:

« فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ، وَلَا صَابِنَكُمْ فِي جَذوعِ  
النَّخْلِ ، وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى . قَالُوا : لَنْ نُؤْتِكَ عَلَى  
مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ، فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ، إِنَّمَا تَقْضِي  
هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا »

قرآن کریم



فصل في معرفة  
الصفات والاشياء  
التي هي في  
الخلق والاشياء  
التي هي في  
الخلق والاشياء  
التي هي في  
الخلق والاشياء  
التي هي في

الخلق والاشياء



## مقدمة

تمهيد - علاقة هذا الكتاب بكتابتنا عن النزاع - من قوانين الايمان - برامة الاديان من تبعات الاضطهاد - امكان الجمع بين الايمان والقسامح - ضرورة الابقاء على الايمان - لا يملك العدالة متعصب ذو نفوذ - من خصائص الغلو في الايمان - من شهداء الاسلام - من شهداء المسيحية الشرقية - من شهداء البروتستانت - من قتلى قريش - من شهداء البابية - ظمأ الانسان الى اوراق الدم - الشغف بالدم عند نساء قريش - الشغف بالدم في الثورة الفرنسية - في محارق محاكم التفتيش - استملاء الجانب الحيواني في الثورات - حق رجال الدين في دفع الكفر - قيام الحق لا يتطلب الاضطهاد - الاضطهاد عدوان على حرية الضمير

تمهيد

هذا كتاب يحكي في نطقه الضيق سيرة فكرة آثمة ، نزت بها قلوب تغلى حقدا وتضطرم تعصبا ، فتوغل في ارتكاب الاثم وتحمل الدين وزر ما تريق من دماء بريئة ، وما تحتاج من مبادئ إنسانية كريمة ! وعلى كره منها مضت مواكب الحرية في طريقها قدما لا تتوقف ولا تتعثر ، إلا لئلا تنف سيرها في نشاط يحدوه الأمل الباسم ، وتوقده الغبطة بالظفر المبين .

وفي هذا الكتاب تتبعنا الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام ، في صور سريعة تم عن أسطح مظاهره ومعامله ، وتشئ بأظهر بواعثه وأسبابه ، وتشير إلى أوضاع نتائجه وآثاره . فكشفنا موجزين عن الاضطهاد الدامي الذي أنزله الرومان بالمسيحية وشهادتها في مراحل تاريخها الأولى ، وتبعناه حين انتقلت دفته من يد الرومان إلى يد الكنيسة الكاثوليكية وأخذت

تكوى بناره خصومها من الكاثوليك - وقد كانت إلى الأمس القريب من ضحاياها ثم سايرناه في الصراع الذي نشب بين هذه الكنيسة وخصومها من البروتستانت وغيرهم ممن عدوا في زمرة المارقين، وصحبناه حين آل أمره إلى المصلحين من هؤلاء البروتستانت، فنكلوا بخصومهم في غير رفق ولا رحمة وتعقبناه في مقاومته لرواد الفكر الحديث حين نبت مبدأ النساح في رؤوسهم واستبد هواه بقلوبهم، فأغرامهم بالاستشهاد مع أتباعهم في سبيل الحرية الدينية راضين مختارين. وعقبنا على هذا بفصل عقدناه على الاضطهاد في الإسلام وأبنا فيه عن موقف الدين الإسلامي من النساح وحرية الاعتقاد، ثم اتهمنا من هذا كله إلى بيان وجه العظة في موضوع هذا الكتاب.

وقد مكنتنا طبيعة هذا الموضوع ومنهج بحثه من أن نتحرى في علاجه البساطة في التعبير والترفق في مناقشة وجهات النظر - حتى لا يثقل الكتاب على المترفين من القراء!

عمدة هذا الكتاب بكتابنا عن النزاع

أما الترفق في علاج الموضوع فرجعه إلى أننا قد وضعنا هذا السكتيب على هامش كتابنا الذي أرخنا فيه النزاع بين الدين والفلسفة، واتهمنا منه إلى نتائج كان من بينها القول بأن الاضطهاد يلازمه الإخفاق كلها نزاع إلى تقويض وفكرة صحيحة، اهتدى إليها النظر الفلسفي أو تكشف عنها البحث العلمي، فانهض رجال الدين بالقضاء على حقيقة ما - بانها ما بلغت جهودهم في هذا الصدد - إلا أخطأهم التوفيق وعاشت الفكرة الصحيحة على كره منهم - إن اختفت في فترات الاضطهاد المشتموم



جد في إحيائها أنصارها بعد انقضاء عهوده الكالحة .

و بينما كنت أعالج هذه الفكرة بالتفصيل في كتابي « قصة النزاع بين الدين والفلسفة » نبتت عندي فكرة لا تدخل في نطاق هذا الموضوع ، ولكنها تحتاج إلى كتيب أعقب به على كتابي السالف الذكر ، أما الفكرة فهي أن الاضطهاد يكتب له النجاح في تحقيق غايته متى قدر له أن يعيش طويلا وكان ينصب على الإيمان الديني فيبقى على بحاله ويحاول تغيير مجراه ؛ واستقراء تاريخ العقائد يقول إن مثل هذا الاضطهاد الدائم لا يخطئه التوفيق حين يهدف إلى إحلال دين مكان دين ، لأنه يحمث العقيدة من قلوب الناس ويغرس مكانها قواعد الدين الجديد ، فإن أخفق في بلوغ غايته حصد الجيل القديم وأتى عليه تقهيرا وتنكيلا وتشريدا ، وعمد إلى الجيل الجديد ونشأه على ما يريد ، وإذا عاشت هذه السياسة عزت العودة إلى الدين القديم ؛ هذه حقيقة سجلها تاريخ الاضطهاد منذ أقدم العصور ، وكان علينا أن نعالجها بإيجاز في هذا الكتيب « قصة الاضطهاد الديني » استيفاء للفكرة التي عالجناها بالتفصيل في كتابنا عن النزاع بين الدين والفلسفة . على أننا نأمل أن يلاحظ القارئ الكريم أن حديثنا عن علاقة هذا الكتيب بكتابنا عن النزاع ، ليس تلخيصا للأفكار التي تضمنها كلا السكتابين ، وإنما هو مجرد إشارة عابرة إلى العلاقة التي تربط بينهما والاتجاه الذي يمشى فيه كل منهما .

وقد أضاءت دراسات السالفة موضوع الاضطهاد الديني ، ولكنني أدركت عند علاجه أن له جانبا تاريخيا محضا ، وانزع فكرة من جوها التاريخي يقتضى

الإمام الكامل بعلاقتها بالعصر الذي تعيش فيه، ومن أجل هذا آثرت أن أراجع فيما يسدو مشارا للظنة في المجال التاريخي إلى أحد زملائي المتخصصين في دراسة التاريخ، عسى أن آمن بهذا زلل الحكم المبتسر أو النزوع إلى الجور على حقائق التاريخ، ولهذا أطلعت زميلي الدكتور محمد مصطفى صفوت أستاذ التاريخ المساعد بجامعة فاروق على بعض فصول الكتاب، وتفضل مشكورا بإبداء بضع ملاحظات قيمة.

فلنمهد لدراسة موضوعنا بكلمة خاطفة رقيقة نتناول فيها الحديث عن قوازين الإيمان والاضطهاد والقداء والاستشهاد وما إليه بسبيل:

من قوازين الاديان

ذهب جمهرة الباحثين في طبيعة المعتقدات وخواصها إلى القول بأن الإيمان يخضع لنا موسين: أولهما يقول إن الإيمان بحكم الضرورة لا يحتمل التسامح، بل إن عدم التسامح يتمشى طرديا مع قوة الإيمان عكسيا مع ضعفه! والإيمان متى احتل قلوب الناس قل اضطبارهم على من ليسوا على دينهم، بله الخارجين على تعاليمه وهذه سنة قيل إن تاريخ الاضطهاد الديني قد سجلها منذ أقدم العصور.

وثاني الناموسين يقول: متى قوى نفوذ طائفة من المؤمنين في شعب من الشعوب نزعوا إلى الاستبداد بسائر الطبقات، وجنحت إلى قتال من لا يدعن لسلطانها ويستجيب لتعاليمها، ويقال إن استقراء التاريخ يؤكد القول بأن الرحمة لا تعرف طريقها إلى قلوب طوائف المؤمنين!



## برادة الأديان من تبعات الاضطهاد

وحسبنا من التعليق على هذين الناموسين أن نقول: إن الأصل في الأديان أنها رسالة الحب إلى النزاعين للحقد والبغضاء، ودعوة السلام إلى التواقين للقتال الراغبين في إهراق الدماء، ونداء الرحمة والتسامح إلى المشائين بالقسوة والانتقام وإذا كانت المسيحية قد فاقت الأديان كلها في إكراه الناس على اعتناقها، فقد ارتكبت فظائعها باسم المسيح الذي يقول لمريديه في خطبته على الجبل: سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك، وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم، باركوا لاعينكم، أحسنوا إلى مبغضيك، وصلوا لأجل الذين يبغضونكم ويضطرونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات. (١)

ومن هنا كان مرد الفظائع التي تنسب إلى المسيحية زورا، إلى ترمت الجهال من أتباعها في الغرب، أما المستنيريون من ذوى الصدور الرحبة من أهلها في الشرق والغرب على السواء، فقد ملأ الإيمان السمح صدورهم، وشاع نوره في نفوسهم فبرئت ساحتهم من آثار التعصب البغيض وكانوا عنوان الحب الذي نزلت المسيحية مبشرة به.

والقول بأن الإسلام قد انتشر بالسيف ينطوي على بهتان عظيم، فما دعى الإسلام للقتال إلا ردا لفتنة المؤمنين عن دينهم، لأن الفتنة أكبر من

(١) إنجيل مثنى الاصحاح الخامس، وسنورد بقية هذه الآيات في نهاية الفصل الذي سنقدمه عن اضطهاد البروتستانت، نرى التباين الملاحظ بين طبيعة المسيحية و تعريفات المتزمتين من رجالها.

القتل - على ما سنعرف عند الحديث على الاضطهاد في الإسلام ؛ وقد نزل القرآن الكريم داعياً للحب مبشراً بالتسامح منفراً من إكراه الناس على اعتناق الإسلام بقوله تعالى « لا إكراه في الدين . قد تبين الرشد من الغي » ، وليس لأحد من رجال دينه على أحد سلطاناً ، بل ليس رسول الله إلا مجرد مذكر ومبلغ « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر (١) » . إلى آخر ما سنعرفه في الفصل الذي سنعقده على الاضطهاد في الإسلام .

### امتحان الجمع بين الإيمان والفسامح

وما من شك في أن تاريخ الأديان قد عرف آلاف المؤمنين الذين صدقوا إيمانهم واتسعت صدورهم لأراء خصومهم ، وبرئت نفوسهم من أدران الحقد على من خالفهم في أمر عقيدتهم ، هذه ظاهرة سجلها تاريخ الأديان وأكدها الاستقراء في كل زمان ومكان .

فالإيمان لا يستلزم التعصب ولا يقتضى التزمّت إلا عند من صدت قلوبهم وأظلم الجهل عقولهم ، وأكلت الإحن والأحقاد صدورهم ؛ وإذا نزل الإيمان السمع بالقلب السليم ملاء صفاء وبدل غيابه نورا . فالتعصب يلازم الإيمان في العصور التي يعتريها الركود العقلي ، ويزايله حين يمحي الجود باستنارة العقل ، إذ تسع جوانب النفس وتصفو القلوب ، ويجتمع في المؤمن وحي القلب

(١) انظر محمد عبده : رسالة التوحيد ص ٢١٧١ - ١٩١ طبعة سادسة وهي كتابه عن الإسلام والتعريف ص ٦٧-٦٨ طبعة اولي .



ومنطق العقل من غير أدنى تعارض .  
 ومن هذا كله نرى خطأ الزعم القائل بأن الإيمان لا يحتمل التسامح ، ولعل  
 الأصح أن يقال إن الإيمان والتسامح لا تربط بينهما علاقة تضاد أو تناقض تمنع  
 اجتماعهما معا ، إنما تقوم علاقة التضاد بين التعصب والتسامح ، واجتماع الضدين  
 عند المناطقة محال .

#### ضرورة الالبقاء على الإيمان

على أن نتائج التعصب المتزمت - بالغما ما بلغت فظاعتها - لا تبرر نزوع  
 أحرار الفكر إلى القضا. على الإيمان في كل صورته ، لأن الإنسان بطبيعته لا  
 يستطيع - بالغما ما بلغ احترامه لشرعية العقل - أن يحبس فارغ القلب ، وليس  
 الإلحاد الصادق في كل صورته الا إيمانا انحرف عن طريقه المرسوم ! ومن هنا  
 قال الملحدون الذين أرخوا ظاهرة التدين عند الناس : لا يموت في قلب الإنسان  
 إله حتى يحتل مكانه إله آخر .. !

ناهيك بما يترتب على الإيمان من وجوه النفع المادى والأدبى على السواء ،  
 إن الإيمان يشيع الطمأنينة في النفس ويملا شعابها غبطة وروحا ، وهذه الطمأنينة  
 زاد لا يستغنى عنه إنسان ، وهذا بالإضافة إلى ما يترتب على الإيمان من  
 نفع مادى يعبر عنه فولتير بقوله : إذا لم يكن الله موجودا لوجب اختراعه ،  
 يجب أن تؤمن بالله حتى تكون زوجتي أكثر وفاء لي ، وغادى أقل

رغبة في السرقة .. وهو رأى أعرق في القدم من فولتير ، بصرف النظر عن تدين أصحابه أو إلحادهم .

لا يملك العرلة منعصب زو نفوذ

أما ثاني الناموسين اللذين أسلفنا ذكرهما في مستهل هذا الحديث ، فإننا نلاحظ على منطوقه ما لاحظناه على الناموس السالف ، ذلك أنه يستخدم الإيمان مكان التعصب ، لأن المؤمن متى صح إيمانه أمكنه أن يجمع بين العدالة والنفوذ ، بل إن الإيمان الصحيح يقي صاحبه شر الجور والظلم ويبعد عنه النزوع إلى البغي والعدوان ، إنما يقع التنافر بين العدالة والتعصب ، وتتفق العدالة متى استقام التزم ، فان اقترن التزم بالنفوذ وقع الاضطهاد لا محالة . وإذا كان من الحق أن يقال إن المؤمن قد يجمع بين السلطة والعدالة فيكون صاحب نفوذ ولا يكون ظلوما ، فان من العسير أن يصدق هذا الحكم إذا تجاوزنا الأفراد إلى الطبقات والطوائف ، ومن هنا كان الخطر في استحواذ أهل التزم من رجال الدين على سلطة زمنية تمكنهم من إيذاء خصومهم . وإذا كان من خصائص الإيمان المتزم أن يجزع أهله من كل مذهب يخالف عقيدتهم ويميلوا إلى التشكيل بصاحبه ، وجب أن يجرد غلاة المتعصبين منهم من كل سلطة تيسر لهم أسباب الاضطهاد ، وبهذا يبقى للإيمان جلاله مع تلافى ما يحتمل أن ينجم عنه من سوء .



## من خصائص الغلو في الإيمان

إن الإيمان الصادق يستبد بهوى أهله ويدفعهم إلى التفانى في نصرته والاستشهاد في سبيله والغبطة تشيع في نفوسهم طويلا وعرضا إنه يخدر أعصابهم ويفقد الإحساس بالآلام العذاب عند المثل الأعلى للؤمن الصادق تلتقى اتجاهات عقله وتيارات قلبه ، فيهون في سبيل مبدئه المال والجاه وكل غرض من أغراض الحياة يمكن أن يستثير جمهرة الناس ويستبد بمشاعرهم ، ومن ثم تكون الشجاعة النادرة والجرأة الملحوظة والاستخفاف بالموت ، فيبدو الإيمان وكأنه عطل الكثير من الغرائز والموال الفطرية عن أداء وظيفتها ، فسرعان ما تهون في النفس الأثرة والملسكية والمحافظة على البقاء وغيرها ، ويصبح الإنسان أسير مبدئه ! ومن أجل هذا كله قيل إن الإيمان يزحزح الجبال ، لأنه يقوى على ما يعجز عنه العقل والتروى والتبصر وما إليه بسبيل .

وأطرف نتائج الفداء أنه يكفل لأصحابه الغلبة بالخلاود ، وإن سجل التاريخ المادى انتصار خصومهم في ظاهر الأمر !

وخصائص الغلو في الإيمان - من تعطل الغرائز عن أداء وظيفتها ، والاستخفاف بالموت والعذاب ، والتفانى في نصرته المطلب عن غير وعى أو شعور والثقة البالغة بالنفس ، والشجاعة النادرة في الدفاع عن المبدأ ، وتحول الألم الممض في سبيل ذلك إلى غبطة بالغة ، والإيثار ويقظة الضمير وغير هذا من خصائص ، إنما يبدو في كل حالات الإيمان الصادق ، وسيان بعد هذا أن

يكون موضوع الإيمان ديناً منزلاً له حرمة وقداسته ، أو يكون عقيدة يعتقد أصحابها أنها دين منزل ، أو يعلمون أنها مجرد فكرة من وضع البشر غاصت إلى مجال اللاوعي واستحالت عقيدة يؤمن بها الأتباع . فلنعرض بضع نماذج للتعبير عن هذه الخصائص ، وليعذرنا القارىء . إن أطلنا في ذكر هذه الشواهد ، فإنما نزيد بالإكثار منها أن ننقله إلى جو هذا الكتاب ، وإذا كان بعضها لا يمثل الاضطهاد الديني ، فإنها صور حية للتعبير عن الفداء والإيمان والاستشهاد في سبيل المبدأ :

### عن شهادة الاسلام

ملاً نور الإسلام قلوب أتباعه لحملهم الإيمان به على جناحه وانطلق بهم إلى حيث مكنهم في فترة وجيزة من الزمن من تقويض أعظم دولتين عرفها تاريخ العصور الوسطى : هما البيزنطية والفارسية ! ومن أظهر نماذج الاستشهاد في تاريخه ما وقع في غزوة مؤتة ، إذ اتجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشام ووجه إليها ثلاثة آلاف لمقاتلة أعداء الإسلام ، وكان اللواء لزيد بن حارثة فإن أصيب فلجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فلعبد الله بن رواحة ، فحمل زيد راية النبي ، واندفع بها في صدر العدو وهو موقن أن ليس من موته مفسر ، لكن الموت في هذا المقام هو الاستشهاد في سبيل الله ، وليس الاستشهاد دون النصر والظفر مكاناً ، وحارب زيد حرب المستميت حتى مزقته رماح العدو ، فتناول الراية من يده جعفر بن أبي طالب ، وهو يومئذ في الثالثة والثلاثين من عمره ،



وهو شاب تعدل وسامته شجاعته ، وقاتل جعفر بالراية حتى إذا أحاط العدو بفرسه اقتحم عنها فمقرها ، واندفع بنفسه وسط القوم منطلقا انطلاقة السهم يهوى سيفه برءوسهم حيثما وقع ، وكان اللواء يمين جعفر فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل !! يقال إن رجلا من الروم ضربه يومئذ ضربة قطعت نصفين ! قلنا قتل جعفر أخذ بن رواحه الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه ، ، ومضى للقتال بعد تردد حتى استشهد (١) .

### من شهراء المسيحية الشرقية

وإذا كانت طبيعة الغلو في الإيمان واحدة ، تشابهت نتائجها وآثاره مع اختلاف الحالات ، وحسبنا في التذليل على هذا أن نورد الشواهد عليه في المسيحية وغيرها :

انتشر الاضطهاد الديني في مصر قبيل الفتح العربي ، وفكر « هرقل » بعد انتصاره على الفرس في أن يوحد المذاهب المسيحية كلها ويصبها في مذهب واحد ، وأقر هذا المذهب الموحد بجمع « خلقيدونية » وتولى بطريقة الدين في الاسكندرية « قيرس » الذي أخفق في إقناع المصريين بالمذهب الجديد ، فوطن العزم على إكراههم على اعتناقه ! وكان كبير أساقفة القبط في مصر هو « بنيامين » الذي كان موضع حب المصريين ومثار احترامهم ، وكان شديد التعصب لمذهب

(١) هيككل : حياة محمد ص ٣٩٣ .

اليعاقبة الذي يقول « إن الطبيعة الإلهية والبشرية امتزجتا في المسيح وصارتا فيه طبيعة واحدة ، فكان عند التجسد ذا طبيعتين أما بعده فصار ذا طبيعة واحدة وهو يخالف مذهب الملكانية الذي يقول : إن الابن مولود من الآب قبل الدهور غير مخلوق ، وهو جوهره ونوره ، والابن اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم فصارا واحدا هو المسيح ، وعندما أخفق قيرس في إقناع الأقباط بالحسنى لج في البطش والاضطهاد عشر سنوات حسوما (١) .

وكان أخو بنيامين ممن عذبوا كثيرا ، إذ أوقدت المشاعل وسلطت نارها على جسمه ، فأخذ يحترق حتى سال دهنه من جانبيه الى الأرض . ولكنه لم يتزعزع عن إيمانه ، فخلعت أسنانه ثم وضع في كيس يملوء من الرمل وحمل في البحر حتى صار على قيد سبع غلوات من الشاطئ ، ثم عرضوا عليه الحياة إذا هو آمن بما أقر مجلس « خلقيدونية » ، فعلوا ذلك ثلاثا وهو يرفض في كل مرة ، فرموا به في البحر فمات غرقا .

وقد تميز قيرس غيظا حين أقبل على الدير فوجده خلاء ممن فيه إلا من خازنه ، ولما جلده قال له إن صمويل الزاهد قد خطب في رهبان الدير ووصفه بالكفر وعدم الإيمان بالله حتى فر الرهبان قبل مقدمه ، ولما ذهب قيرس دعا الإخوان إلى ديرهم آمنين ، وأما البطريق « المقوقس » فقد مضى إلى الفيوم ودعا أتباعه وأمرهم بأن يجيشوه بذلك العابد « الأبا صمويل » مكتوف اليدين من

(١) هيكل : الفاروق عمر ج ٢ ص ٧٦-٧٨ .



خلاف ، وأن يضعوا في عنقه طوقاً من الحديد ، وأن يدفعوا به كما يدفع للصمصص ،  
 فجاءوا به من الدير الذي كان فيه وذهب صمويل مستبشراً في صحبة الله وهو  
 يقول « سأمنح إن شاء الله اليوم الشهادة بأن يسفك دمي في سبيل المسيح ،  
 وأخذ يسب المقوقس دون أن يخشى شيئاً ، فلما دخل عليه أمر المقوقس جنده  
 أن يضربوه حتى سال دمه كما يسيل الماء ، ثم قال له « صمويل أيها الزاهد الشقي  
 منذ أقامك رئيساً للدير وأمرتك أن تعلم الرهبان أن يسبونى ومذهبي ؟ فقال له  
 العابد : إن البر في طاعة الله وطاعة وليه البطريق « بنيامين » وليس في طاعتك  
 والدخول في مذهبك الشيطاني - يا سلالة الطاغوت ويا أيها المسيح الدجال ،  
 فأمر قيرس جنوده أن يضربوه على فمه وراح يتوعده ، فقال له صمويل « لقد  
 كان إبليس من قبل كبيراً على الملائكة ولكن كبره وكفره فسقا به عن  
 أمر ربه ، وهكذا أنت أيها الخادع الخلقيدوني ، فإن مذهبك مذموم وإنك  
 أشد لعنة من الشيطان وجنوده ، !

وبمثل هذه الجرأة والشجاعة الأدبية النادرة ، كان صمويل يخاطب صاحب

الحول والطول في البلاد (١) !

من شهراء البروتستانت

وفي حركة الإصلاح الديني في أوروبا اتقد أتباع المذهب البروتستانتى حماسية

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ترجمة الاستاذ الجليل محمد فريد ابو حنيد بك من ١٦٣-٦٥  
 طبعة ١٩٣٣ م .

لنصرة مبدئهم ، واضطرموا تعصبا له وتمسكا به ، وكانوا ينزفون حقدا على خصومهم ورغبة في التنكيل بهم - وسنعرف من آثار هذا الشيء الكثير ، وقد تفانوا في الدفاع عن مذهبهم الذي آمنوا به ؛ أفقدهم الإيمان الشعور بالألم حتى كانوا يتقدمون إلى مواقد النار التي أقامها الكاثوليك لإحراقهم والغبطة تشيع في نفوسهم ، ويتجهون إلى نصيح من حولهم للعدول عن السكلكة واعتناق البروتستانتية دينا ! حتى رأى أولوا الأمر أن ينتزعوا - قبيل إحراقهم - ألسنتهم من أفواههم ، اتقاء لسحر تأثيرهم - ! وبمثل هذه الروح كابدوا آلام الحروب الدامية وعناء المذابح المروعة ، يهزم الحنين إلى ربهم مستشهدين في سبيل دينهم ، حتى قدر لمذهبهم أن ينتصر ، وكتبت له السيادة في بعض الأمم (١) .

وهكذا يؤدي الغلو في الإيمان إلى الاستخفاف بالألم والعذاب والموت ، والإقبال على الاستشهاد في فيض من الغبطة والرضا ، وليس ينبغي هذا أن يهدف

(١) وقد عانى اليهود الكثير من ضروب الاضطهاد المرير الدامي طوال تاريخهم ، واستشهد الكثيرون منهم من أجل دينهم . وحسبنا من مظاهر استخفافهم بالموت ما وقع في وقعة قريظة ، إذ اشتد حصار المسلمين لهم فاختاروا - بعد بين مصاد الانصاري - حكما بينهم وبين خصومهم ، فأمر بأث تقتل المغالبة منهم وتقسيم الاموال ... فقدم حبي ابن اخشاب لضرب عنقه ، فقال له النبي : « ألم يخزك الله يا حبي فأجاب حبي : كل نفس ذائقة الموت ولي أجل لا أعده ، ولا يوم نفسي على عداوتك ثم اتهمت الى الناس وقال : ايها الناس انهن لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملاحة كتبها الله على بني اسرائيل »

وسمي ثابت ابن قيس عند رسول الله يستوهبه دم الزبير ابن باطل القرظي ، وأجاب رسول الله طلبته ، ولكن الزبير حين علم بالامر قال : « شيخ كبير مني ، لا أهل ولا ولد له ، ماذا يصنع بالحياة ! » ثم سأل عن زعماء بني قريظة فعلم انهم قتلوا ، فقال : « اني اسألك يا ثابت بيدي عندك =



الاستشهاد إلى غير النعيم الآخروي ، وإذا كانت النماذج التي أسلفناها تفسر هذه الظاهرة في المؤمنين بالآديان المنزلة ، فلدينا الكثير مما يشبهها من وجوه الاستشهاد في سبيل مبادئ ، لم ينزل بها وحى ، ومرد التشابه في هذا الصدد إلى أن طبيعة الغلو في الإيمان واحدة ، بصرف النظر عن موضوعه وبجمله :

من فنلى فربسه

وقد وقع لقريش في غزوة أحد مثل ما وقع للمؤمنين من المسلمين في وقعة مؤتة - على ماروينا منذ حين ، فكان لوأؤهم لا يسقط من يد حتى يتقدم من يحمله ، قتل على طاحه بن أبي طاحه ، فحمل عثمان بن أبي طلحة اللواء ، فلما لقي مصرعه على يد حمزه تقدم لمله أبو سعد بن أبي طلحة ، وصاح يقول للمسلمين : « أتزعمون أن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار ؟ والله إنكم لتكذبون ، ولو كنتم تؤمنون بما تقولون حقا فليقدم منكم من يقاتلني . وضربه على أو سعد بن وقاص بسيفه ضربة فلقته هامته ، وتعاقب حملة اللواء من بني عبد الدار حتى قتل منهم تسعة ، كان آخرهم صؤاب الحبشي غلام بني عبد الدار ، وقد ضربه قزمان بالسيف على يده اليمنى فتناول اللواء باليسرى . فقطعها قزمان بسيفه ، فضم صؤاب اللواء بذراعيه إلى صدره حتى حنى عليه ظهره وهو يقول : يا بني

«ألا ألقيني بالنوم ، فوالله مالي العيش بعد هؤلاء من غيري ، فإنا أنا بصائر الله أشبه دلو ناصح (أي مقدر هوى الدلو في البحر) حتى ألقى الأحبة » وبهذا هانت الحياة عنده ، فصرخت عنقه بمشيتته .

عبد الدار هل أعذرت ؟ ١٩ ، (١)

من شهراء البايية

أنشأ هذه الديانة السيد على محمد الشيرازي حين اعتبر نفسه باب العلم بالحقيقة الإلهية ، في عام ١٨٤٤م (٢) ، واعتنق عقيدته الكثيرون في بلاد الفرس وآمنوا برسائله ، وقد كانت هذه الفرقة دينية ولقيت الكثير من ضروب الاضطهاد الدامي .

بدأت الحكومة بإعدام زعيم البايية لخروجه على مذهب الجماعة ، وكبلت بالحبال مريديه من نساء ورجال وأطفال ، وجردت أجسامهم من الثياب وأحدثت في جسم كل منهم جرحا وضع الجلاد فيه فتيلا ملتها ، وانطلق الموكب على هذا النحو في شوارع طهران وقد اضطرم الجميع حماسة فراحوا ينشدون في صوت جهورى قائلين : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ومضى الموكب والجنود من خلفه ، فاذا سقط في الطريق طفل داسه أبواه ومرا به استخفافا ..! وخطر لأحد الجلادين أن يهدد أبا بضرب عنق ولديه على كتفه إذا لم يعدل عن

(١) المصدر السابق ص ٢٨٩ .

(٢) هي مجموعة عنائد مستمدة من مختلف الديانات ، غابجا اصلاح البشر ( انظر مادني باب وبابي للمستشرق هيورت Ch. Huart في دائرة المعارف الاسلامية - وهي الآن البهاية وهي منتشرة في ايران وامريكا ، ولها في مصر المفضل الروحاني المرصفي ، وله نشاط ملحوظ يبدو في سكراته نشراته وآثاره المؤلفة والمترجمة ، بل في ردوده المتقنة على كل من مس دياته بسوء في الصحف والمجلات وغيرها . وفي مستجاب « مطالع الانوار » ترجمة شوفي افندي رباني (الناشرة ١٩٤٠) فيض من أمثال الاستشهاد تعبر عما نقصده بخصوص الفداء والتضحية في سبيل الایمان .



اعتناق البابية دينا ، فبادر الرجل بالانطراح على الأرض مستخفا بوعيده  
وسارع أكبر الولدين وكان في الرابعة عشرة من عمره ، فالتمس من الجلاد  
أن يبدأ بذبحه ويثني بأخيه الأصغر ..!

وكان البابي يتقدم إلى سيف الجلاد فاذا بقرت بطنه رفع صوته مفشدا :  
إننا لله وإنا إليه راجعون ! وقد صلب زعيم المذهب مع أحد مربيه على حائط  
توطئة لإعدامهما ، فسمع الناس المرید يقول لأستاذه : أستاذي : أراض أنت  
عني ؟ وأمثال هذه الحوادث في تاريخ البابية كثيرة وقد فاضت بها كتبهم  
وسير رجالهم .

وإذا كان الاستشهاد الذي مثلنا له من قريش والبابية قد وقع من أجل  
عقيدة وضعها أصحابها في منزلة الأديان الموحى بها ، فقد وقع ما يشبه هذا  
الاستشهاد في ثورات يعلم أصحابها يقينا أن مبادئها من صنع البشر . ومرد  
النشابه في هذه الألوان من الاستشهاد إلى وحدة طبيعته في كل ما كان صادرا  
عن أصل ديني (١) ،

حسبنا هذا من الشواهد التي تشير إلى خصائص الاستشهاد عند أهل الإيمان

(١) من أظهر الامتال التي تشهد بصحة ما نقول ، ما لقيه الميوني والارهابيون المتعردون  
من طلاب الدنيا في روسيا ، كانت الاجمان المتزمت بحلمهم على جناحه ويندلق بهم الي حيث  
يسامون العذاب صنوفاً والوانا ، راضين بمصيرهم معتبطين بالآلامهم ، من غير ان يفريهم بهذا  
طمع في نعيم جنه ، أو خوف من عذاب جهنم !  
وقد اعتقد القائمون بالثورة الفرنسية أنهم رسل دين جديد ، وبهت محاكم العاقبة في اباده  
الانوف ممن حامت حولهم الريب والظنون ، فتقدم الشهداء الي المقصلة بجنان ثابت وقلب  
مطمئن واعتلى الجيرونديون درجاتها راغمين أصواتهم بنشيد المارسلين ..!

العميق ، وأظهرها تعطل غرائز المحافظة على البقاء والآثرة وغـيرها عن أداء  
وظيفتها ، بالإضافة إلى ما يعتري الحس من تخدير يشل عمله ، بل تحول الإحساس  
بالآلم المرير الممض - في وقدة الحماسة وسورة الدفاع عن المبدأ - إلى فيض من  
الغبطة والرضا ! وسيان بعد هذا أن يكون الاستشهاد من أجل دين منزل أو  
فكرة من وضع البشر !

### ظمأ الانسان الى اهرام الرمم

إن من يتتبع تاريخ الثورات الدينية ، وما وقع إبانها من مذابح مروعة  
وحركات إبادة وقتل وإحراق ، تساوره الدهشة من إقدام الإنسان على ارتكاب  
مثل هذه الفظائع ، ولكن البحث في النفس الثائرة المتمردة قد أثبت ظمأ  
الإنسان إلى قتل غيره من حيوانات وأناسى على السواء ! وإذا كانت الحضارة  
قد عطلت بزواجها غرائز الإنسان في هذا الصدد ، فإنها لم تستطع أن تقضى  
عليها قضاء كاملاً ، وإذا كان جمهرة فلاسفة الأخلاق قد ردوا النزوع إلى الخير  
عند الإنسان إلى فطرته ، وغالى بعضهم فوحد بين الخير والجمال ومزق الصلة بين  
الأخلاق والدين المنزل ، وأبى أن يكون فعل الخير أثراً من آثار الترغيب في  
نعيم الجنة والتخويف من عذاب الجحيم ، ورأى أن الفضيلة جمال تهفو إليه  
النفوس ... (١) إلى آخر ما قيل في هذا الصدد ، إذا كان هذا هو ما ذهب إليه بعض

(١) هذا في مذهب الحاسة الخلقية Moral Sense بوجه خاص ، وأكبر أتباعه شانتسبري  
وما تشون ،



فلاسفة الأخلاق الذين ينزعون الى تصوير المثل الأعلى للسلوك الإنساني ، فانه لا ينفي ما قلناه في كتاب لنا منذ عشر سنوات « .. والمرء إنما يمقت الشر إن عاش بعيدا عنه . وبهلع لا ارتكاب الخطيئة إذا لم يألفها ، فان أقام في جوها وتنفس نسيماتها أحبها ومال إليها حتى لا يطيق فراقها ولا يحتمل العيش بدونها ! وقد يصبح الشرير محترفا ! يفعل الشر لذاته ويأثم بارتكاب الخطيئة ولا غاية له إلا التمتع بها وإرواء شهوته منها ، والجندى الذى يمضى إلى القتال مضطربا جزعا ويلقى طعته الأولى خائفا وجلالاً ، لا ينبث حتى يشتد الظمأ به إلى بقر البطون وإهراق الدماء (١) .

والملاحظ في تاريخ الثورات في كل عصورها أن الزواجر حين ترتفع ، ينطلق الإنسان إلى التمشي مع الجانب الحيواني عنده ويخف إلى الاستجابة لوسى شهواته ، ومن هنا كان تقلب المشاعر في فترات الثورات والفتن ، بحيث تستحيل الوداعة والرفقة والحياء ونحوه إلى صور من الوحشية والخشونة والاستهتار .. وفي تاريخ الثورات والفتن فيض من الشواهد حسبنا منها :

### السُّغف بالرمم عمر نساء قريش

هزمت قريش في غزوة بدر فناحت نساء قريش على قتلاها شهرا كاملا ، جززن فيه شعر رءوسهن وأخذن أنفسهن بالنواح حول راحلة القتيل أو فرسه

(١) انظر كتابنا « قصة السكفاح بين روما وقرطاجنة » ص ٨٥ طبعة ثانية ١٩٤٦

إلا هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان ، فإنها أبت أن تشاطرهن النجيب ، فلما سألتها : ألا تبكين موت أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك ؟ قالت إني أخشى أن يبلغ بكائي محمدا وأصحابه فيشمتوا بنا مع بنات بني الخزرج ، والله لن أبكي حتى آخذ ثأري من محمد وأصحابه ، والدهن على حرام حتى نغزو محمدا ! ولبثت لا تقرب الدهن ولا فراش زوجها أبي سفيان - وكان مثلها مغیظا محنقا - وتحرض على القتال حتى كانت وقعة أحد فاستأجرت فيها وحشيا الحبشي لقتل حمزه ابن عبد المطلب عم النبي ، وقتل حمزه وتم النصر في نهاية المعركة لقريش ، فانطلقت هند مع نساء قريش للتمثيل بحث القتلى من المسلمين ، وأخذن يمدعن الآذان والأنوف ، وجعلت هند لنفسها منها قلائد وأقراطا ، ثم إنها بقرت بطن حمزه وجذبت بين يديها كعبده وجعلت تلوكها بأسنانها فلا تستطيع أن تسيغها ! وبلغ من شناعة ما فعلت وما فعل النسوة معها بل ما فعل الرجال كذلك من الفظائع ، أن تبرأ أبو سفيان - زوجها - من تبعثها وأعلن أنه لم يأمر به وإن كان قد اشترك فيه ، .. (١)

### السُّفْء بالدم في الثورة الفرنسية

اشتعلت نار الثورة الفرنسية وأقيمت المشائق لإعدام المتهمين بالخيانة العظمى ، ونشطت حركة الإعدام بكثرة ما كان من اتهامات وجهت بمنة

(١) انظر ميكل باشا في حياة محمد ص ٢٧٠ و ٢٨٧ - ٨٨ و ١٩٢



ويسارا دون أن يحرص أحد على تحقيق صحتها وتحري الدقة في بحثها ، استخفافا بأرواح الناس في غمرة الثورة المستعرة .

وكانت السيدات الفرنسيات ينطلقن في كل صباح إلى حيث تقام المشايق رغبة في التلهي بمنظر القتلى حين تفصل المقصلة رءوسهم عن أجسادهم . . .  
وانتدب المؤتمر - فيمن انتدب - الكاهن لوبون للهيمنة على حركة الثورة في الأقاليم ، فأقام المقصلة بحيث تشرف على نوافذ بيته ليتمكن مع زوجته وصحبه من التمتع بمشاهدة مناظرها ، وأقام إلى جوارها مقصفا للنظارة من الثايرين ! وكان الجلاد يلقي ببحث الضحايا في أوضاع مثيرة للضحك ، وكان كاربه ، يحمل ضحاياه على أن يحفروا قبورهم ليدفنهم فيها أحياء ، ويصدر أوامره بقتل النساء والأطفال غرة ، ثم يقول إنه لم يضحك من قتل رجال الدين بقدر ما ضحك من منظر وجوههم وهي تنقلص وتنقبض عندما تحين ساعتهم ! (١)

في محاربه محاكم التفتيش

وكانت محاكم التفتيش في مطاردتها للبارقين ودفعها عدوان الملحدن ، تغريهم بالتوبة والعدول عما أدينوا من أجله ، فإن كبروا وأصروا ، أصدرت أحكامها

(١) الامثلة مستقاة من لوبون في كتابه La Revolution et la Psychologie des  
Revolutions وقد ترجمه الاستاذ محمد عادل زعيتر تحت عنوان « الثورة الفرنسية وروح  
الثورات »

بمروقهم وتولت السلطات تعذيبهم أو إعدامهم أو إحراقهم . فان أحرقوا كان إحراقهم في محارق تقام في ميادين عامة في المدن الكبيرة وتنظم لهذا احتفالات تشهدها الجماهير والأجبار والملوك أحيانا ، وكانت هذه الاحتفالات أشبه بالأعياد يطرب لها الناس ولا يحدون في مناظرها ما يدعو إلى الضيق والاشمئزاز !

### استمراء الجانب الحيواني في الثورات

نرى مما أسلفنا كيف تبدل المشاعر إبان الفتن ، ويتحول الإنسان الوديع في غمار الثورة حيوانا مفترسا يلذ لارتكاب ما كان يفزع من مجرد تصورهِ ، ويسعى إلى عمل ما كان ينفر منه ويتقزز ؛ وقد قيل إن أكثر الذين ارتكبوا فظائع الثورة الفرنسية - وهي تشبه في طبيعتها الثورات الدينية - لم يكونوا من المجرمين والسفاهين ، بل كانوا من المستنيرين الذين ظن البعض أن التعليم هذب طباعهم ورقق مشاعرهم ، وينسحب هذا على أكثر أعضاء الجمعية التشريعية والمؤتمر ، وما يقال عن الثورة الفرنسية ينسحب على الثورات الدينية ، لأن التبع النفسى الذى صدرت عنه واحد.

في الثورات - ولا سيما الدينى منها - يستعلى الجانب الحيوانى فى نفوس الناس ، وتستيقظ ميولهم الفطرية ويخفت صوت العقل وترتفع الزواجر التى أقامها ومن ثم يبدو الإنسان وحشاضاريا ، ومن هنا كانت مذابح الاضطهادات الدينية وفضائع حروبها أمرا عاديا مألوفاً متى عرفت بواعثه ومقدماته ؛ وإذا



كان علم الأخلاق يضيق بهذه النسكسة التي يرتد بها الناس إلى الحيوانية الأولى ،  
 وبأسف لانسياق الناس وراء شهواتهم ، وإيغالهم في الأثم حين يلغون بأنفسهم  
 في عباب الفتن والثورات ، فإن علم النفس ليعرف كيف يفسرها في ضوء نواميسه  
 السيكولوجية من غير أن يخضعها لأحكام الشر والخير ، فيمهد بهذا للثورخين  
 وعلماء الاجتماع سبل دراستها من غير أن يجدوا فيها ما يثير دهشة أو يبعث  
 أسفا !

### هو رجال الدين في دفع الكفر

وإنصافا للإيمان - بما هو إيمان - نقر حق المؤمن المطلق في الدفاع  
 عن عقيدته ، ورجال الدين بحكم إيمانهم من ناحية ، وبحكم وظائفهم من  
 ناحية أخرى ، مطالبون بمقاومة كل فكرة هدامة ترمى إلى تقويض دينهم  
 وزعزعة نفوذهم ، وتهاونهم في أداء هذه المهمة اتهام لشعورهم بأقدس واجب .  
 وهذا بالإضافة إلى أن المذهب الجديد في أكثر حالاته يهدد سمعتهم وينذر  
 بحق الناس في الاستخفاف بهم ، ويرر عصيان أتباعهم لهم ، إن سمعتهم لتعلو  
 في نظر الناس بمقدار ما يبسود الحق في جانبهم ، وتتداعى متى ظهر بطلان  
 المبدأ الذي اعتنقوه وروجوا له بين الناس ؛ ومن أجل هذا حرص رجال  
 اللاهوت في روما على أن يعلنوا للعالم أن البابا معصوم من الخطأ ، ولم يجد  
 مجلس الفاتيكان غضاضة في أن يصدر بهذا قرارا منذ نحو ثمانين عاما !

علي أن هذا كله لا يبرر السكبح والإكراه وتعذيب الخصوم والتخلص

منهم بالنفي والإحراق والإعدام ، ولا سيما وأن الاضطهاد - في الكثير من حالاته - ينتهي إلى عكس الغاية التي وضع من أجلها ، وهو لا يتنصر في القضاء على عقيدة إلا يوم تطول عهوده السود ويمتد أمد أزمانه الخائفة وحرابه الدامية ومذابحه المروعة ، ومع هذا لا تستحق ثمرته الثمن الباهظ المرهق الذي دفع من أجلها .

### قيام الحق لا يتطلب الاضطهاد

وإذا كان الذين ينزلون الاضطهاد بخصومهم يعتقدون أنهم على حق فهل يحتاج الحق ليستقيم أمره وتثبت قدمه ويطاول الدهر حياة إلى سيف يشد أزره ؟ .. ما قيمة العنف في إقرار الباطل مكان الحق ! قد يكون في الباطل من وجوه الفتنة والإغراء ما يجذب الناس إلى اعتناقه والتمسك به ، ولكن دولته لا تدوم طويلاً .. وإذا تولى السيف حماية الباطل بقي الباطل حيناً لا يلبث بعده أن يتداعى وتتكشف حقيقته للعيان ، وقد ينصرف الناس عن الحق متى عميت بصيرتهم وكفوا عن النظر الصحيح ، ولكنه لا يلبث أن يتبدى لمن تهديهم إليه الفطر السليمة ويجتذب إليه الأعوان يتكاثر عددهم بمرور الأيام ، ويشتد إيمانهم به وتفانيهم في الدفاع عنه حتى يستقر أمره ويحتل مكانه في قلوب الناس !

وجانب الحق في كل دين كفيلاً بأن يطيل بين الأمم بقاءه .. وليس معنى هذا أن نكف عن دفع الكفر وحماية الدين ، بل حسبنا أن نعمل على نشر



مبادئنا بالإقناع والحسنى وأن نتوخى الحججة في تأييدها ، فذلك خير وأبقى .. ثم لماذا القهر والسكبح والاضطهاد وما إليه بسبيل إذا كان النصر للذهب الصحيح والبقاء للحق الواضح ؟

ما أجمل المبادئ الإنسانية التي بشرت بها الأديان ودعا إليها رواد النزعات الإنسانية الصادقة من أهل التصوف والفلسفة ودعاة الإصلاح السلي والمقاومة السليبة من أمثال غاندى وتولستوى . أليس أكرم للنفس أن نبغض الشر ونحب الأشرار لأنهم إخواننا في الإنسانية قد ضلوا سواء السبيل ، ان ضلّهم أحرى بأن يثير إشفاقنا ورحمتنا من أن يثير غضبنا وحققتنا ، إن إصرار الشرير على الاستمسك بنزعاته الشريرة أخلق بأن يثير الرثاء له من أن يثير الرغبة في إبادةه واستئصال شأفته ... ولكن هيات لطبائع البشر الحيوانية أن تستجيب لمثل الإنسانية الحسنى ..

### الاضطهاد عرواه على حرية الضمير

والإنسانية لم تسكسب من وراء جهادها الطويل المرير ما هو أعز عليها وأكرم عندها من حرية الضمير ، لقد عبر العالم إلى هذه الحرية في كل مجالاتها بحيرات من دماء الآلاف من شهدائه ، وأقى في سبيلها الكثير من جهده ووقته وماله وسائر موارده المادية والروحية معا . وأصبحت أظهر السمات التي تميز الإنسان من سائر الحيوانات لأن جهاد الإنسان التماسا لتوفير ما تتطلبه حياته من ضرورات القوت وما إليه بسبيل ، ظاهرة تشارك فيها الحيوانات بكافة

صنوفها ، والإنسان وحده هو الذى يمكن أن يرتفع عن ضرورات العيش  
ومطالب الدنيا ويتسامى إلى تحقيق ما تكمل به نفسه من ألوان الحريات .

ولكن هؤلاء المتزمتمين من غلاة المتعصبين يتكفلون بمسلكهم الباغى  
إزاء خصومهم ، بأن يقوضوا هذه الحرية ويضيعوا على الناس ثمرة هذا الجهاد  
الطويل .. فوق أنهم يسيئون بمسلكهم إلى عقائدهم أكثر مما يسيء إليها  
المارقون ...!

على أن ما سنراه فى فصول هذا الكتاب من معارك دامية بين المثل العليا  
والمطالب الدنيا ، قد كتب فيها النصر المؤزر للشهداء فى سجل الخالدين ،  
والاندحار المحقق لأصحاب المطامع والمنافع - وإن بدا الأمر عند أهل النظرة  
السطحية العاجلة على غير ما نقول . إن المبادئ الإنسانية - فى مطلع حياتها  
بوجه خاص - تعيش على أشلاء الشهداء وتروى من دماء أهل الفداء .

توفيق الطويل

الاسكندرية فى ربيع الثانى ١٣٦٦ هـ  
مارس ١٩٤٧ م



## اضطهاد المسيحية

أسباب اضطهادها — اضطهاد نيرون للمسيحية — حركة الاضطهاد في القرن الثاني — دفاع المسيحيين عن دينهم — بغض هؤلاء المدافعين للحضارة الرومانية — الثالث بين الاضطهاد والتسامح — اضطهاد المسيحيين في عهد دقلديانوس — انتصار المسيحية على هذا الاضطهاد — تبرير اضطهاد الرومان للمسيحية — التسامح وبدء نفوذ الكنييسة في روما .

### أسباب اضطهادها

خرجت السياسة الرومانية على شريعتها في إطلاق الحرية الدينية لرعاياها ، وضنت بالتسامح على الدين المسيحي الجديد منذ ظهوره ، ونهضت لمقاومته واضطهاد أتباعه ، فكان هذا بدء الاضطهاد الديني في أوروبا (١) . ومرجع هذا الاضطهاد إلى أن الأباطرة كانوا لا يعرفون من أمر الدين الجديد إلا أنه امتداد لليهودية ، وكانت هذه موضع كراهية من الوثنيين المتسامحين ، على غير ما جرى العرف في إباحة الحرية الدينية للناس ، لأنها أثارَت بتعصبها الحقد في القلوب ، ولكن الأباطرة كانوا يقومون بحماية أهلها من ضراوة هذا الحقد ، حتى إذا أحسوا بأنها ستبدو في ثوب جديد من المسيحية ، وتجذب كثرة من الأنصار الجدد ، يشيعون تعصبها ، ويثيرون حقد الناس عليها ،

(١) أنظر بيوري J. B. Bury في كتابه A History of Freedom of thought وقد استقينا منه كثيرا من معلوماتنا عن الاضطهاد الذي نزل بالمسيحية في قرونها الأولى .

أخذوا في مقاومة تعاليمها واضطهاد أتباعها ، وبدأت حركة الاضهاد على يد  
دوميشيان + ٩٦ Domitian .

### اضطهاد نيرون للمسيحية

ويقال إن تاريخ المسيحية قد سجل أول مظاهر الاضطهاد الدامي في عام  
٦٤ من ميلاد المسيح ، في عهد الطاغية الظالم « نيرون » ، ٦٨ (١) إذ قيل إنه  
أمر بإحراق روما ليستمتع برآها ، ولبثت النار تضطرم في المدينة وتأتى على  
من فيها ستة أيام كاملة . واتقد الشعب غضبا خشي الطاغية مغبته ، فألقى تبعة  
إحراقها على عاتق المسيحيين . فاضطرم الشعب هياجا وحقداً ، وكابد المسيحيون  
من جراء هذا عننا شديداً ؛ لبس بعضهم جلود الوحوش وألقى إلى الكلاب  
تنهش جسمه ، وطليت أجسام بعضهم بالقار والشمع وغيره مما يقبل الالتهاب ،  
ثم أشعلت النار فيهم أحياء .. ! بل أقيمت حفلة ألعاب في بستان هذا الطاغية ،  
وكان هؤلاء الضحايا المصاييح التي تضيء هذا الملعب ! (٢)

(١) B. W. Henderson, The Life & Principate of the Emperor Nero, London 1903

(٢) ولكن هذا الرجل قد اشتهر في التاريخ بشذوذه ، وناهيك بمن يقتل زوجه ويفرق  
سفينة تحمل أمه ، وذا نجت الأمم أمر بها فذبحت . ! فمسلكته ازاء المسيحية لا يمثل سياسة  
الباطرة حياها - وموقفه في المسيحية في هذه الفترة من الزمن يذكرنا بموقف الحاكم  
بأمر الله ١٠٢١ م في الاسلام ، فقد طارد الذميين من اليهود والنصارى ، وتولام بالقتل  
او التعذيب ، وهدم كنائسهم وألقى أعيادهم ، وحرق من شأنهم أمام المسلمين ، وأوقع بهم حتى  
نزع السكتيون منهم فرارا ، ولكن مسلكه ازاءم لا يمثل سياسة الحكام في مصر الفاطمية نحوهم  
فالمرور أن الدولة الفاطمية كانت تجري على سياسة التسامح مع الذميين ، وأن الحاكم بأمر  
الله لم يقصر اضطهاده على الذميين ، بل كثيرا ما أوقع بالذميين من رجاله السابقين ، وهذا



## مركز الاضطهاد في القره الثاني

و حين تولى الحكم « تراجان » + ١١٧ كان اعتناق المسيحية جريمة عقابها الإعدام ، ومع أن القوانين كانت لا تقوم بحماية الدين المسيحي ، فإن الأباطرة كانوا يميلون إلى استئصاله من غير أن يرضوا دما . . . !! وقد قرر « تراجان » ألا يتعقب المسيحيين المستنيرين ، وألا يحفل باتهام أحد لهم باعتناق هذا الدين الجديد ، ما لم يقيم صاحب الاتهام الدليل على صحة اتهامه ، فإن أعوزه التدليل على ذلك ، عرض نفسه للعقاب ! .

ولسكن الشعب كان تواقا لاضطهاد الدين الجديد والتنكيل بأتباعه ، ومن هنا كانت الاضطهادات الدامية التي عرفها هذا القرن - اثنتاني لميلاد المسيح - وأظهرها ما وقع بين سنتي ١٦١ - ١٧٤ وبين سنتي ١٧٧ - ١٨١ ، وكان التمصب الديني الأعمى يضطرم في نفوس الناس ، فكان الوثنيون إذا رأوا مسيحيا لاذوا فرارا ، مخافة أن يمسهم دنسه ! ومن هنا كان حرمان المسيحيين من دخول الحمامات وغيرها من المحال العامة ! وامتد هذا إلى تعذيبهم في غير رفق ولا رحمة ، فكانوا كثيرا ما يلقون إلى الوحوش الضارية تفترسهم في مدرج عام ، يضم خصومهم الذين يحضرون للتلهي بمشاهدة هذه المناظر . . .!

## دفاع المسيحيين عن دينهم

وقد أفضى هذا الاضطهاد البشع إلى اضطلاع المستنيرين من المسيحيين

== فضلا عن شذوذ الذي أدى به إلى أن يؤله نفسه ويعطى بعض شعائر الاسلام ويسب أبابكر وعمر وغيرها من السلف الصالح ، ويذبح ذلك في المساجد . ! وإذا كان تعدد عدل عن ذلك فالمعروف عنه أنه قد عاد في أواخر أيامه إلى انصاف الذميين واطلاق الحرية لهم والترفق في معاملتهم .

بالدفاع عن دينهم ، ورد التهم التي توجه إليهم ، فسكتوا الأباطرة والمثقفين  
 و دفاعات ، هاجموا فيها المعتنقات الوثنية ، وشادوا فيها بالعقيدة والأخلاق  
 المسيحية . وحسبنا أن نشير إلى ثلاثة من هؤلاء المدافعين أو المحتجين ، لتبين  
 من هذه الإشارة شيئاً عن موقفهم وروح عصرهم ، وهؤلاء هم القديس  
 جوستين + ١٦٧ م واثناغوراس وتاتيان المولود في عام ١٢٠ م :

فأما أولهم فقد تخلى عن وثنيته واعتنق النصرانية ديناً ، وأخذ يبشر بتعاليمها  
 بخاطبة ومناقشة على ما كان مألوفاً في عهده ، وقصد إلى روما ، وأنشأ بها  
 مدرسة لبث يعلم فيها حتى استشهد مع ستة من تلامذته . . وقد روى في أحد  
 كتبه أن فيلسوفاً من الكليين كان يناقشه ويجادله في حلقات علنية ، ويحمل  
 عليه على مشهد من الجمهور ، وأنه كان يتوقع أن يبلغ أمره إلى الحاكم ففعل  
 هذا الفيلسوف هو الذي سعى به حتى قتل مع تلامذته . . !

وقد وضع أثناء مقامه في روما ، في الخمسة عشر عاماً الأخيرة من حياته ،  
 ثلاثة كتب هي خلاصة تفكيره وتعليمه ، وهي احتجاج مرفوع إلى الامبراطور  
 أنطونان وولديه - وكان أحدهما ماركوس أورليوس - ومجلس الشيوخ  
 والشعب الروماني ، وقد أبان في مطلع الغرض من كتابته ، وهو إبراء ذمته  
 بإثارة أولى الأمر وتحميلهم تبعة تقتيل المسيحيين ، ثم يحتج على الاضطهاد  
 لأن الحكام يقيمون الدعوى على المسيحيين لمجرد أنهم مسيحيون ، لا لأنهم  
 اقترفوا ذنباً يعاقب عليه القانون ! وقد وضع الكتاب الثاني بعد الأول بزمان  
 وجيز ، بمناسبة استشهاد فريق من المسيحيين لأجل دينهم ! ويكرر احتجاجه  
 ويسهب في بعض النقط التي أوجز فيها من قبل - وفي ثالث كتبه ، حوار مع  
 ريفون ، يحكى فيه تاريخ ثقافته الفاسفية واعتناقه المسيحية مع عرض الايمان



المسيحي من جديد .

أما القديس أنثاغوراس فقد وضع « التماس من الفيلسوف المسيحي أنثاغوراس الاثيني لأجل المسيحيين ، ورفعته إلى الامبراطور ماركوس أورليوس وابنه عام ١٧٧ م وطلب فيه الوفاق مع الامبراطورية - كما حاول ذلك جوستين - ويصرح بأن إغلاظ القول لا يؤدي إلى غير زيادة الحقد ... إلى آخر ما ذهب إليه .

بعضهم هؤلاء المدافعين للحضارة الرومانية

وإذا كان هذان القديسان يميلان إلى الترفق في الحديث ، فقد كان القديس « تاتيان ، يضطرم بغضاً للحضارة اليونانية ، وقد اعتنق المسيحية وقصد إلى روما وتلذذ لجوستين ، وبعد استشهاد أستاذه غادر روما إلى الشرق ، وانتقل من السنة إلى الغنوسية ، وأنشأ مدرسة يعلم بها وكتب « خطابه إلى اليونان ، أي إلى الأمم غير المسيحية وفيه يقول « عرفت في حدائتي الفلسفات والأسرار الوثنية ، طوفت في كثير من البلدان ، وعلبت مذاهبكم ووقفت على كثير من المؤلفات والمكتشفات ، ولكنني اشمأزت مما رأيت في الوثنية من شعائر مخجلة ، ووضعت يدي بين كتب - هي الكتب المقدسة - أقوم من مذاهب اليونان وأسمي من أن تقارن بأباطيلهم ، قرأتها فخماني على الإيمان بها بساطة أسلوبها ووضوح تفسيرها خلق العالم ، وإنباؤها بالمستقبل ، ومبادئها العالية وتوحيدها ، كذلك راعتني أخلاق المسيحيين فانفصلت عن حكمتكم وكنت من أبنه بمثلها ا » .

وكما هاجم الوثنية ، حقر من شأن التراث اليوناني في مختلف مجالاته ،

فاليونان في نظره لم يبدعوا شيئاً جديداً في مجال الفن أو الأدب أو الفلسفة،  
ولسكنهم حاكوا غيرهم، فأخذوا عن موسى وتجاهلوا فضله، وليست فلسفتهم  
إلا نسيجا من النقائص، ولا طيبهم إلا نوعاً من السحر، ولا فهم إلا تمجيداً  
للدعارة وإفساداً للنفوس!.. والفلاسفة عنده متهمون في أخلاقهم.. الخ (١)  
ومثل هذه الحملة نراها عند ترتليان + ٢٢٠ فهو مع دفاعه عن المسيحية  
ومهاجمته للاضطهاد، يحمّل على الفلسفة ويغلو في معارضتها، فيقول  
« إنا بريثون من الذين ابتدعوا مسيحية رواقية أو أفلاطونية أوجدلية، بعد  
المسيح والانجيل لسنا بحاجة الى شيء،! وبهاجم أخلاق الفلاسفة، ويصرح  
بأن البدع المسيحية قد نشأت عن الفلسفة... الخ (٢)

ومن هذا نرى أن دفاع هؤلاء المسيحيين عن دينهم في هذه الفترة، كان  
يقطر تعصباً ويتقد حقداً على الحضارة التي يعيشون في ظلها، إذ لم يكن من  
الميسور لهم أن يقبلوا الوثنية ويذعنوا لتعاليمها، ولهذا صرح المؤرخون من  
أمثال Bury بأن اضطهاد الأباطرة المسيحيين، قد أدت إليه رغبة هؤلاء  
الأباطرة في الانتصار لمبدأ التسامح العام!..

### القرن الثالث بين الاضطهاد والتسامح

وفي مطلع القرن الثالث ميلاد المسيح، تزعم كليمان الاسكندري + ٢١٧  
مدرسة الإسكندرية المسيحية، ولكن الامبراطور الروماني Septimus

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية للإستاذ يوسف كرم ص ٢٦٢ - ٢٦٣ - ٢٦٧ - ٢٦٦  
طبعة ثانية.

(٢) للمؤلف نفسه في تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط سنة ١٩٤٦ ص ١٧



Severus قد أصدر في عام ٢٠٢ أمرا باضطهاد المسيحيين ، فتوقف كليان عن التعليم ، وغادر مصر إلى آسيا الصغرى ، وكان من تلامذته أوريجان +٢٤٥ وقد اعتقل أبوه فيمن اعتقل في غمرة هذا الاضطهاد ، وأراد أن يلحق بأبيه ولكن أمه حالت دون ذلك ، فأرسل إلى أبيه رسالة حارة يغريه فيها بالثبات على مبدئه ، ويحذره من العدول عن رأيه من أجل أسرته .. ! فأعدم أبوه وصودرت أملاكه ..

ثم تزعم أوريجان المدرسة بعد هذه المحنة بعام ، ولكنه جلا عن الإسكندرية وعاد إليها ثلاث مرات ، وفي المرة الأخيرة حظر عليه أسقف الإسكندرية التعليم ، لانحرافه عن العقيدة . وأيد الأسقفان التاليان هذا الحظر مع أنهما كانا من تلاميذه ، فرحل إلى فلسطين ، وفيما هو هناك ، شب اضطهاد هائل في سنة ٢٥٠ فاعتقل وعذب عذابا ألما احتمله بشجاعة فائقة ، ولكن صحته تأثرت تأثرا عميقا ، فتوفي في مدينة صور ، وكان قد أعلن عن رجوعه عن الآراء التي غيرت السلطة الدينية عليه ، (١)

ومع هذا فالرأى عند كبار المؤرخين أن الكنيسة قد استطاعت في هذا القرن - الثالث - أن تنظم صفوفها في جو هادئ آمن ، دون أن تلجأ إلى التستر والتخفي ، فتمكنت المجامع الإكليريكية من أن تعقد اجتماعاتها دون أن تخشى تدخلا من السلطات ، ومع هذا يستند المسيحيون إلى وقوع بعض الاضطهادات العنيفة ، ويخترعون أقاصيص يصورون فيها الاستشهاد الرائع في سبيل الله . ١

(١) المصدر السالف ص ٢٩٦ ، ٢٧٤ - ٧٥

## اضطهادهم في عهد دقلديانوس

وفي عصر دوقلديانوس + ٣٠٥ Diocletian بل بعد بضع سنوات من حكمه، قرر رئيس العيافين الذين يقومون بفحص أحشاء الحيوان ليستنبطوا منها أبناء المستقبل، أن الآلهة تضيق بكفر المسيحيين، وتأتي من أجل هذا أن تكشف عن أبناء الغيب المحجب...! وعندئذ نزع دقلديانوس إلى اضطهاد المسيحية وجندلة رجالها، فأمر بهدم كنائسها وإعدام كتبها المقدسة وآثار آبائها، وقرر اعتبار المسيحيين مدنسين تسقط حقوقهم المدنية، وأمر بإلقاء القبض على الكهان وسائر رجال الدين، وتجريعهم العذاب ألوانا، وأصدر في العام التالي أوامره إلى الحكام بتنفيذ هذه التعليمات كلها في مناطقهم فامتألت السجون بالمسيحيين، واستشهد الكثيرون بعد أن مزقت أجسامهم بالسياط والمخالب الحديدية، أو أحرقت بالنار أو قطعت أرباعا، أو طرحت للوحوش الضارية أو غير هذا من وجوه التعذيب.

وقد أراد هذا الامبراطور أن يؤلِّفه في مصر مسيحيوها، فأبوا الإذعان لما أراد، فتولاهم بالسجن والإحراق على نار بطيئة، وأمعن في تعذيبهم حتى سمي المسيحيون عصره بعصر الشهداء، وجعلوا بداية حكمه (٢٨٤ م) بدءاً لتقومهم، ولكن محاولته لم يقدر لها النجاح، لأن الإيمان المسيحي كان قد تغلغل في قلوب الكثيرين، حتى أضحي الاستشهاد في سبيله، مدعاة لراحة الضمير واطمئنان النفس... بل انصرف الأباطرة عن الاهتمام بمقاومة المسيحيين، إلى الحملات التي كان يشنها البرابرة على أملاكهم، فأنساهم هذا النذير الذي يهدد وطنهم، اضطهاد المسيحية والتنكيل بأتباعها، بل نزع بعض



الاباطرة إلى اعتناق المسيحية .. ولهذا تخلوا عن سياسة الاضطهاد ، وصدر مرسوم بالتسامح في عام ٣١١ م وفيه اعتراف بمدى ما فعله الايمان بنفوس هؤلاء الضالين !.. وقلة جدوى التعذيب المروع معهم .. ! وأذن لهم هذا المرسوم باعتناق معتقداتهم ، وأباح لهم حرية الاجتماع دون مخافة أو إزعاج ، على أن تكون قوانين البلاد وحكومتها موضع احترام منهم وتقدير .

### انقصار المسيحية على هذا الاضطهاد

ومن هذا نرى أن اضطهاد المسيحية لم يحقق غايته ، فانتصر الدين الجديد بفضل الشهداء الذين افتدوا بأنفسهم حياتهم ، وبفضل انصراف الاباطرة إلى صد غارات البرابرة على أملاكهم .. عاشت المسيحية على كره من خصومها ، لأنها تنطوي على « حق » لا يقوى على سحقه اضطهاد ، بل إن الاستناد إلى وصف المؤرخين لهذا الاضطهاد ، يبيح لنا أن نقول إن المسيحية قد انتصرت . لأن الاضطهاد الذي أنزله به خصومها ، لم يكن من العنف بحيث يقوى على استئصال شأفتها ، ولم تطل أيامه الخالكة السود ، حتى يتمكن خصومها من إبادتها ، فقد قلنا في مقدمة هذا الكتاب ، إن الاضطهاد ينجح في تحقيق غايته ، متى طال عهده واشتدت أزمته ، وكان يهدف إلى إحلال عقيدة مكان أخرى ، إذ يبقى بذلك مجال الإيمان ويتحول مجراه ، وهذا أمر ميسور من الناحية السيكولوجية صحيح من الناحية التاريخية ..

### تبرير اضطهاد الرومان للمسيحية

ويذهب صفوة المؤرخين إلى تبرير الاضطهاد الذي أنزلته الدولة الرومانية

بالمسيحية وأتباعها، إذ كان الدين الجديد يناصب العقائد الأخرى العداء، ولا يلبس في حكمه عليها ورأيه في أتباعها، وقد بدا من تصرفات المسيحيين واعترافاتهم، أنهم على استعداد لإبادة المذاهب كلها، وتحطيم الحضارة التي يعيشون في ظلها، متى تهيأت لهم سلطة تمكنهم من تحقيق هذه الغاية، فكان على الدولة أن تنهض للدفاع عن نفسها، ومحو هذا الدين الذي يهدد بإثارة الشقاق عند رعاياها، وينذر بتحطيم الحضارة التي تعزبها. ولم يكن أتباع هذا الدين الجديد طلاب حرية دينية، فالمعروف أن شهداء المسيحية قد راحوا استجابة لنداء ضميرهم ووحى إيمانهم، ولم يموتوا في سبيل الدفاع عن مبدأ الحرية الدينية .. !

#### النساصح وبر، نفوذ الكنيسة في روما

تخلى الأباطرة بعد دقلديانوس عن سياسة الاضطهاد، وصدرت مراسيم التسامح في عام ٣١١ وفي عام ٣١٣ - أصدر الامبراطور قسطنطين Constantine مرسوم ميلان، وأقر فيه مبدأ التسامح، ووضع المسيحية مع غيرها من الأديان على قدم المساواة .. ثم اعتنق المسيحية بعد عشر سنوات من هذا المرسوم، فبدأ بهذا عهد جديد، تحررت فيه المسيحية من قيود الاضطهاد، وتآهب أتباعها لاضطهاد خصومهم على ما سنعرف بعد حين.

وقد نقل قسطنطين عاصمة ملكه إلى بيزنطة - التي سميت باسمه بعد ذلك - فتطلعت روما إلى رئيسها الديني الأعلى، وطمعت في أن يأخذ مكان عاهلها الامبراطور، وأخذت الكنيسة منذ ذلك العهد تستحوذ على سلطان واسع النطاق بمدود الرحاب، وعكف الناس على مزاوله العبادات التي ترتضيها



انتقاء لعذاب الجحيم ، وطمعا في نعيم الجنة المقيم ، ومكن لهذا السلطان ضعف الحكومة القائمة واجتياح البرابرة للأقاليم الرومانية ، مما مكن الكنيسة من التخلص من رقابة الحكومة وتدخلها في شئونها ، وجاهر الأساقفة بإعلان كلمة رئيسهم الديني على سلطة الملك ، بحجة أن البابا مسئول أمام الله عن أعمال الملوك والناس أجمعين .

وكان المسيحيون الغربيون يعتقدون أن كنيسة روما قد انفردت من بين سائر الكنائس ، بأن منشئها رسول - هو الرسول بطرس - أعلى الرسل مكانة في نظر المسيح وأتباعه - وكانت روما عاصمة الامبراطورية الرومانية ، ومن هنا نشأت أسبقية كنيستها على غيرها من الكنائس في غرب أوربا ، واستقرت سيادتها بمنشور أذاعه فلانتين الثالث - بتحريض البابا ليو الأكبر + ٤٧١ وأضحت كنيسة روما مركز السلطة الدينية ، ومصدر التيارات الموجهة في القرون التالية ، وسرى الدور الذي قامت به في اضطهاد المتهمين بالمروق والإلحاد .

وقد التمس بعض رجال الكهنوت لأنفسهم سلطة تيسر لهم أسباب الاضطهاد ، ونزعوا - كما سنعرف بعد - إلى استغلال السلطات المدنية في تحقيق مقصدهم ، فطالبوا بفرض نوع التربية التي يؤخذ بها التلامذة في مدارسهم ، ومصادرة الكتب التي لا تسير نزعاتهم ، وإقصاء المعلمين المارقين عن وظائفهم ، ونفى المفكرين الذين يخطئهم التوفيق في إرضاء رجال الكهنوت ... بل نزعوا إلى التنكيل بالمارقين ليسكونوا عظة لكل من ضل سواء السبيل ... وكانت عقوبة الإعدام الآتمة - كما سنعرف بعد قليل ...

ك  
تحت  
عبر  
الناس

## تعقيب

نرى مما أسلفنا ، أن المسيحية قد لقيت في عصرها الأول عنتا شديدا ، فنكل بأتباعها بعض الأباطرة وغيرهم من سواد الناس ، على غير ما جرى العرف في هذه الآونة ، وكان هذا الاضطهاد يهدف إلى الحيلولة دون انتشار هذا الدين الجديد ، الذي ظنوه امتدادا لليهودية الحقود البغيضة إلى نفوسهم ! والتي لاحظوا عند أتباعها تعصبا لمبادئها ، وبغضا للحضارة الرومانية ، وسخطا على معتقداتها ، واحتقارا لشعائر أهلها .

ولكن المسيحية قد بقيت على كره من خصومها ، لأن الاضطهاد لم تطل أيامه السود ، حتى يستأصل أتباعها من الوجود ، ويحول دون اعتناق الأجيال الجديدة لمبادئها ، ولهذا انتصرت المسيحية على خصومها وأنوفهم في الرغام ، وأخذ الأباطرة أنفسهم يعتنقونها ديناً ، فتوطد مركزها وأخذ نفوذها في الاستقرار والانبساط .

وقد قلنا إن شوكة الرئيس الديني الأعلى - البابا فيما بعد - قد أخذت تعظم في مطلع القرن الرابع ، وأن اعتناق قسطنطين للمسيحية ، كان بدء عهد جديد ، تحولت فيه دفة الاضطهاد ، إذ أخذ المسيحيون ينزلونه بخصومهم ، وقد كانوا إلى الأمس القريب ضحاياهم ..! فلنقف عند هذا وقفة قصيرة ، نفصل فيها ما أجمناه :



## الاضطهاد في المسيحية

أثر الاضطهاد الاسرائيلي في الاضطهاد المسيحي — نزوح الآباء الاولين الي  
القسايق — بدء الاضطهاد في المسيحية — الشقاق في داخل الكنيسة — اضطهاد  
قسطنطين للملحدين — من آثار الاضطهاد في القرن الرابع — اضطهاد تيودوسيوس  
الملحدين — من عوامل نمو الاضطهاد — بدء الاعداء في المسيحية — موقف الاكبروس  
من اعدام الملحدين — القديس أوغسطين ومكاته — انتصاره للاضطهاد — عقيدة الخلاص  
والاضطهاد — اضطهاد المسيحيين بعضهم لبعض في مصر — الاذعان للكنيسة واتقاء  
الاضطهاد — عودة الكنيسة الى مقاومة الروح الجديد — مذبحه الابيجيين — تعقيب .

## أثر الاضطهاد الاسرائيلي في الاضطهاد المسيحي

استقام أمر الاضطهاد في شريعة بني اسرائيل ، كما تشهد مذبحه كنعان  
ومجزرة كهنة بعل Baal وغيرها من وجوه الاضطهاد ، بل لقد كانت مراسم  
موسى أول دستور للاضطهاد الديني ظهر بين البشر ، وقد نصت هذه المراسم  
على أن عبادة الأوثان ليست خطيئة فحسب ، بل جريمة لا يمكن التكفير عنها  
بغير إهراق الدم !

ويكاد ينعقد الرأي عند جمهرة المؤرخين على أن هذه السياسة قد أثرت  
تأثيرا ملحوظا في الاضطهاد الديني عند المسيحيين ، فالأستاذ « بيوري »  
يصرح بأن بعض المقطوعات التي تنطوي على التعصب الممقوت في « العهد  
القديم » - أي التوراه - قد تسلمت إلى « العهد الجديد » وكانت زادا لأنصار

الاضطهاد في العالم المسيحي بعد ذلك - وأيد « بايل » Bayle « ورينان » Renan القول بتأثر الاضطهاد في العالم المسيحي ، بسياسة الاضطهاد عند اليهود - فيما يقول الأستاذ ليسكي (١) Lecky - وإن كان من الحق أن نلاحظ مع « تايلور » Taylor أن المسيح حين رفض الإذن لرسله بإحراق الملحددين ، قد دل بهذا على نفوره من روح التعصب البغيض .

### نزوع الآباء الأولين إلى التسامح

أما عن آباء الكنيسة فقد تشعبت وجهات نظرهم وفقاً للظروف التي أحاطت بهم ، فناهضوا الاضطهاد ونددوا بالتعصب ، يوم كانت السلطة في يد خصومهم ممن لا يدينون بدينهم ، فلما تمكن نفوذ الكنيسة وتبأت السلطة لرجالها ، وأصبح في مقدورهم أن يتحكموا في خصومهم ، تولاهم التزمت ونزعوا إلى الاضطهاد فيما يقول الكثيرون من المؤرخين . كان « ترتليان » Tertullian + ٢٢٥ م أثناء الاضطهاد الوثني ، كما كان « هيلار » Hilar (من أهل بواتيه) أثناء الاضطهاد الذي نزل باتباع أريوس ، من أعظم المحامين الذين أبلوا في الدفاع عن مبدأ التسامح أحسن بلاه . وقد كتب « ترتليان » « دفاعاً » وجهه إلى حكام الولايات الرومانية ، وهاجم فيه مشروعية الاضطهاد ، واحتج على قسوة الإجراءات المتخذة ضد المسيحيين ، وراح

(١) هو W. E. H. Lecky في كتابه :

Hist. of the Rise and Influence of the Spirit of Rationalism in Europe وقد استقيننا بعض معلوماتنا عن اضطهاد المسيحيين لخصومهم من الفصل الأخير في الجزء الأول منه وعنوانه « بواذر الاضطهاد » والفصل الأول من الجزء الثاني فيه « عن تاريخ التعصب »



يتحدى قائلا : (إننا تتكاثر إذ تحصدوننا ، وإن دم المسيحيين لبذرة ، وإن لكم فيما تأخذونه علينا من عناء لعبرة ، فمن ذا الذي يشهده ولا يتزعزع ، ثم لا يبحث عن السرفيه ، ومن ذا الذي يبحث فلا ينضم إلينا ، ومن ذا الذي ينضم إلينا فلا يتوق للعذاب والموت ، في سبيل الحصول على النعمة الإلهية كاملة والنمو شاملا ؟) . ومن هذا الدفاع ، وما تضمنه من التحدى الملحوظ ، ندرك سر دعوته إلى التسامح ، وحملته على الاضطهاد ، وموقفه هذا لم يمنعه من أن يضع كتابا « إلى الأمم » ، يهاجم فيه الوثنية ، إلى جانب كتبه التي رد فيها على المبتدعة من المسيحيين (١) وإلى جانبه عرف آباء آخرون وإن كانت آثارهم في مجال هذا الدفاع أخف حماسة وقوة .

وفي أثناء الاضطهاد الذي أنزله بالمسيحيين « دقلديانوس » ، اعتنق المسيحية « لاكتانتوس » ، Lactantius وأكد في عهد قسطنطين جريمة الاضطهاد ، ولكن تأثير كتاباته كان ضئيلا ، بل لقد عانى هو نفسه الاضطهاد ، إذ اتهم بأنه ينكر شخصية الروح القدس ، فأدان كتاباته مجلس تولى البابا جلاسيوس (٢) Glasius رياسته .

أما غير هؤلاء من الآباء ، فقد كانوا إذا نزعوا إلى الكبيح ، تحاموا الإسراف وكرهوا أن يكون الإعدام عقوبة للهرطقة (الإلحاد) ، ونفروا من هذا كل النفور ، وسنعود إلى هذا عند الحديث على « موقف الأكليروس من إعدام الملحدين » ،

(١) يوسف كرم في تاريخ الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط ص ١٦ ( طبعة أولى )

(٢) تولى عرش البابوية من ٤٩٢ - ٤٩٦ م

وبهذا امتازت الأرثوذكسية المسيحية من غيرها من المذاهب التي زاول أتباعها اضطهاد خصومهم دون رفق ولا رحمة، حتى قيل إن أكثر من ثمانين كاثوليكيا - من رجال الدين المسيحي - قد سجنوا في عهد الامبراطور Valens - الذي اعتنق مذهب آريوس - ثم أحرقوا غدرًا . . .! وفي الحق لقد كان موقف الآباء الأولين في جملته، متمشياً مع روح المسيحية التي نزلت مبشرة بالحب في أسنى صورة، داعية للأخوة بين الناس في أكمل مراتبها، على ما أشرنا في مقدمة الكتاب .

### بره الاضطهاد في المسيحية

قلنا إن المتزمين لا يملكون التتكيل بخصومهم ، متى كانت السلطة تعوزهم ، والمظنون أن المسيحية قد أقرت سلطة رؤسائها من رجال الكهنوت ، إذ ورد في الإنجيل ، أعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات ، وتأكد في نفس الإنجيل هذا المعنى ، إذ جاء فيه ( الحق أقول لكم ، كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء ، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء ) (١)

وهذا بالإضافة الى ماتياً لرجال الكهنوت من سلطان زمني في بعض مراحل التاريخ - كما سنعرف بعيد .

ومنذ اللحظة التي ظفرت فيها الكنيسة بسلطة مدنية - في عهد قسطنطين -

(١) إنجيل متى ، الاصحاح السادس عشر في الآية التاسعة عشرة ، ثم الاصحاح الثامن عشر الآية الثامنة عشرة في نفس الإنجيل



دخل مبدأ الكبح العام ، واستمر عشرة قرون شداد ، رسف فيها العقل والقلب في الأغلال ، وعانى من قسوته اليهود وعباد الأوثان كثيراً ، فأما اليهود فقد أشرنا إلى أنهم كانوا مثار الكراهية والحقد في الدولة الرومانية ، تزيد من هذا الشعور حركة « تهويد » قوية ، تهدف إلى رد الناس عن المسيحية ، ومقاومة الذين يرتدون عن اليهودية بالقوة والعنف ، وقد حاول قسطنطين أن يضع حدا لشروهم ، فأصدر قانونا يقضى بإحراق كل يهودى يلقي على كل من اعتنق المسيحية حجراً ، وعقاب كل مسيحي تهود - أى اعتنق اليهودية ، ثم عدل العقاب إلى مصادرة الأملاك ، فإن تزوج يهودى بمسيحية أعدم

#### الشقاق في داخل الكنيسة:

وقد نبت الشقاق في داخل الكنيسة ، وتشعبت وجهات النظر بين المسيحيين أنفسهم منذ عصور المسيحية الأولى ، وكان طبيعياً أن تتصدى الكنيسة للدفاع عن تعاليمها ، وأن تعقد المجامع الدينية للنظر في كل رأى مخالف ، وعقاب كل من دان به ، وكان استخدام المنطق ومقارعة الحجج بالحجة ، هي السلاح الذى شاع استخدامه في هذا النزاع . أما العقوبات التى كانت تفرضها الكنيسة على دعاة الآراء الشاذة والمذاهب الهدامة الجائحة ، فقد كانت محتملة لم ترتفع قط إلى مرتبة الإعدام . ومن دلالات هذا ظهور آريوس + ٣٣٦ فى الاسكندرية ، واتهامه بالإلحاد لأنه أنكر - على غير ماجرى العرف الكنىسى - ألوهية المسيح ، وزعم أنه لا يساوى الآب فى جوهره وطبيعته ، وأنه خلق بإرادة الآب فكان حادثاً غير قديم ! فنظمت الكنيسة مجعماً حضره من أساقفة مصر وليبيا

نحو مائة أسقف ! فلما ركب آريوس رأسه وأصر على رأيه ، أدانته المجمع مع أتباعه ، وأعلن الإسكندر - أسقف الإسكندرية - هذا الحكم إلى جميع الأساقفة .

ولما فشى مذهب آريوس وكثر أتباعه ، أمر قسطنطين في عام ٣٢٥ م بعقد مجمع ديني في نيقية ، ضم نيفا وثلاثمائة أسقف من آسيا وأفريقيا وأوروبا ، لحكم بوحدة الجوهر عند الأب والابن معا ، وإدانة آريوس وإحراق كتاباته وتحريم اقتنائها ! ومن رأى من الأساقفة الانتصار لمذهب آريوس ، أمر قسطنطين بخلعه ونفيه ، وإن كان قسطنطين قد عاد إلى الرضا عن آريوس وأتباعه ! ولبت آريوس على دينه حتى مات ، ولم يمت المذهب بموته ، بل نما واجتذب الكثيرين من الأتباع ، فعقد من أجله الكثير من المجمع الدينية ، كان قوامها الإقناع بالحجة والمنطق

ومن قارن موقف الكنيسة من هذه الحركة ، بموقفها من البروتستانتية بعد ذلك ، أو من الشيع الدينية التي خالفتها الرأي - من أمثال شيعة الجانسنست (١) والكاتاريين والأليبيجين - وسنعرض للحديث عنها بعد ، من

(١) هي شيعة دينية تنسب إلى الكاهن الكاتوليكي Cornelius Jansen تدين بعقائد مستنبطة من مذهب القديس أوغسطين - ٣٤٠ م فتناهن العقيدة الكنسية الشائعة عن حرية الإرادة ، وترى سلب الحرية الباطنية عن البشر ، واذعانهم لرحمة الله ، والجسم عندهم هو الذي يفرى بالشر ويدفع إليه ، ولو شاء الله أن يرحم الناس لوقاهم شره ! فعصبت الكنيسة لهذا لان الشر مرجعة عندها إلى اختيار الإنسان ، انظر مادة Jansenism في دائرة معارف الدين والاخلاق ومصادر هذه المادة



قارن بين هذين الموقفين ، أدرك التطور الملحوظ الذي اعترى مسلك الكنييسة ، وحول اتجاهها الرحيم ، شطر الكبح والاضطهاد والتكيل والاعدام .

### اضطهاد قسطنطين للمسيحية

أما عن سياسة قسطنطين حيال الوثنيين فشوية بالغموض ، لأنه في السنوات الأولى من حكمه ، حين كان سلطان المسيحية لا يزال قلقلًا ، وحين كان يشاطره الحكم ليكينيوس Licinius الوثني ، أبدى قسطنطين تسامحًا ملحوظًا حيال معتنقي الخرافات القديمة ، ولكن بعض قوانينه أثارت الفزع في نفوس الوثنيين ، فحاول أن يرد إليهم طمأنينة نفوسهم ، فأعلن في وضوح الإذن بعبادة الأوثان ! ولما توطدت قدمه ، وسحق خصمه ليكينيوس عام ٣٢٤ م ، غير اتجاه سياسته ، فأصدر أمره إلى الحكام من مرموسيه ، بالكف عن إظهار الولاء للأوثان ، ثم وضع حكومات الأقاليم في أيدي مسيحية ، ومضى عام ٣٣٠ إلى أبعد من ذلك ، فمنع عبادة الأوثان - فيما يقرر بعض المؤرخين الدينيين ، وإذا كان المرسوم الذي قضى بهذا التحريم لم يصل إلينا ، فقد أكد صدوره الكثيرون من المؤرخين الموثوق بهم .

على أن قسطنطين وإن كان قد عادى الوثنيين ، فقد خاف كثرتهم وتدرج في مقاومة عقائدهم ، ومن هنا كان استمرار الوثنيين في عباداتهم إلى عهد تيودوسيوس ، مع أن قسطنطين قد حرم مزاوله هذه العبادات في كل صورها .

## من آثار الاضطهاد في القرن الرابع

وظهرت في القرن الرابع والخامس في الكنيسة المسيحية طائفة دينية هي الدوناتست Donatist شايعوا الاضطهاد وأكبروا من شأن الشهداء الذين اشتدوا في معاملة المارقين ، وقد أبان نسطوريوس Nestorius (١) بطريق القسطنطينية عن مبدئه في الاضطهاد ، حين قال للإمبراطور : أعطني الدنيا وقد تطهرت من الملحدين ، أمنحك نعيم الجنة المقيم !..

أما عن الهراطقة ممن أسلفنا ذكرهم من الدوناتست وأتباع آريوس ، فقد قضت القوانين بهدم كنائسهم ومصادرة اجتماعاتهم ، ونفي كهانهم ، وإحراق كتاباتهم ، فن أخنى ما كتب كان الإعدام مصيره ، وقد صدرت ضد بعض الدوناتست أحكام بالإعدام ، ولكنها ألغيت قبل تنفيذها ، وكل دم أريق في هذه الفترة كان مرد إراقتة إلى ما بدا من تطرف مسرف عند بعض أتباع هذه الطائفة ممن انساقوا وراء المبادئ الهدامة التي لا تتمشى مع أمن الدولة .

## اضطهاد تيودوسيوس للملحدين

ويظهر أن أول قانون نص على الإعدام عقوبة للملحدين ، كان في دستور تيودوسيوس + ٣٩٥ م الذي لم يطبق إلا على أتباع المذهب المانوي ، وهو أول قانون نصادف فيه لفظ « مفتشى الإيمان أو رجال محكمة التفتيش ..! »

(١) كان بطربقا من ٤٢٨ الي أن أدين ونفذ مجازاً أفسوس عام ٤٣١ وهو الذي قرر ألوهية المسيح وإنسانيته معا ، وانكبه انسكر وحدتها في شخصية واحدة شاعرة بنفسها مؤمن تم انشطرت الوحدة الي اثنيانية .



وضع تيودوسيوس أواخر القرن الرابع قوانين صارمة تتضمن ستا وستين بندا لمقاومة الهرطقة ، وإلى جانبها بنود أخرى لاستئصال الوثنية ومناهضة الديانة اليهودية والارتداد عن الدين ومزاولة السحر ونحو ذلك . وكان هذا الدستور يقضى بإقصاء الوثنيين عن وظائفهم في الدولة ، وتحريم طقوسهم السرية ، وحظر عبادتهم جميعا ، وهدم معابدهم ، وتحطيم صورهم ، وقد كان الكثيرون من أهل الريف يجهلون أمر المسيحية إلى ذلك العهد ! ومرد جهلهم إلى قلة المواصلات وفشو الجهالة وانقطاع الاتصال بين الريف والحضر ، ومن أجل هذا هالهم هذا القانون الذي صادر عباداتهم وحطم معابدهم ، على أن ليبيانوس Libanius كان واسع الصدر رحب الأفق ، فدافع عن قضية الفلاح في هذا الصدد دفاعا مجيدا ، لأن المعبد كان عند هذا الفلاح رمزا للاله الذي يتفانى في عبادته ، كان مصدر السلوى والعزاء عما يعانیه من متاعب ويكابده من محن ، كان أقدم متعة في حياته ، فإن حطمته فقد قضيت على أعز ما يملك في دنياه ، وجرحت موطن الاعتزاز في نفسه ، ومزقت صلوات القربى بالأعزاء من موتاه ، وأتيت على مهبط الإيمان الذي يعمر قلبه ... ولكن على غير جدوى كان دفاعه المجيد ! فهدمت في عهد تيودوسيوس الكبير جميع معابدهم ، وصودرت كافة عبادات الوثنيين والملحدین ، ومنعت مزاولتها منعا باتا ..

من عوامل نمر الاضطهاد

وفي هذه المرحلة من الزمن - في النصف الثاني من القرن الرابع لميلاد

المسيح - ظهر عاملان كان لهما خطرهما الملحوظ في تطور الاضطهاد وإقرار سياسته ، أولهما أن الكثير من مجالس الأكليروس قد طلب إلى السلطات المدنية معاقبة المراهقة أو نفيهم ، وكان لهذه القرارات أثرها الملحوظ في مسلك الحكومة إزاءهم ، وثانيهما استقرار نظام الرهبنة ونموه ، وبهذا النظام ظهرت مجموعة من الرجال الأفاضل في إنكار الذات والاعتصام بالشجاعة المجيدة ، والتزام التزم الصارم والتعصب الجازم الخلو من كل رحمة ، أحبوا العزلة فنفروا من روابط الزواج وعلاقات الرحم والقربى والصدقة ونحوها - وإن كان بندكت + ٧٤٣ قد قاوم فكرة العزلة في نظام رهبنته بعد - ورفضوا حياة الترف وزهدوا في اللذات ، وكلفوا ببساطة العيش فأحبوا الفاقة والوحدة ، وراحوا يتجولون في الصحارى مع الحيوانات المتوحشة نصف عرايا يكادون يموتون جوعا .. ، كاد الرهبان القدامى أن يخدموا في أنفسهم كل عاطفة طبيعية ، وأن يبرءوا من مغريات الثروة ومفان الجاه ، ويتجردوا من نزعات الطمع والرغبة في نعيم الدنيا ، وكانت كافة البواعث التي تهيم على مشاعر الناس ، مجرد ألقاظ خلو من كل معنى يدعوهم لاحترامها ؛ ولم يكن من الميسور لمثل هؤلاء أن يتخلوا عن مبادئهم لقاء رشوة أو خوفا من عقاب أو طمعا في ثواب ؛ إنهم يقبلون على الزهد في اللذات راضين معتبطين ، ويتولون أجسامهم بألوان العذاب تكفيرا عما توهموه من ذنوب .. ! إنهم يتفانون في صيانة دينهم وحماية مبادئهم وترقية كنيستهم .. كان هذا هو الهوى الوحيد الذي بقي لهم بعد أن قضوا على كل ما ينطوي عليه الإنسان من أهواء وميول ورغبات .. !



لم يكن هناك عشاء لم يكونوا على استعداد لاحتماله أو ابتلاء أنفسهم به !  
وقد خلف لنا مؤرخو الوثنيين صوراً صادقة لوصف حماسهم البالغة في تحطيم  
الأوثان ، ومقاومة العبادات التي لا تسير دينهم ، وكثيراً ما كانوا يستشهدون  
في نزاعهم مع الملحدين ، حتى خفت عبادة الأوثان وقل أتباعها !..

### برء الاعدام في المسيحية

قلنا إن أول قانون نص على الإعدام عقوبةً للملحدين ، كان قانون  
تيودوسيوس ، ولعل أول تطبيق لهذا القانون كان في عام ٣٨٥ م حين أدين  
الملحد الأسباني بريسكليان Prescillian على ما سنعرف بعد قليل ، وأعدم  
بأمر الامبراطور ماكسيموس ، وكان طريفاً أن يوجه تمستوس Themistius  
وهو لا يدين بالمسيحية - خطاباً إلى الامبراطور Valens يطالبه فيه بإلغاء  
القوانين التي أصدرها لمقاومة المسيحيين الذين يراهم على خلاف معه ، وصرح  
في خطابه بأن الحكومات لا سلطان لها على قلوب الناس ومعتقداتهم . وأن  
القمع قد يفضي إلى الاعتراف القائم على الرياء والنفاق ، وأن من واجب  
الحكومة ، أن تيسر لكل إنسان اعتناق الدين الذي يشاء ...

### موقف الاكليروس من اعدام الملحدين :

شارك رجال الاكليروس في اعدام بريسكليان وأتباعه لأول مرة ،  
بتحريض الكاهنين أورزاتيوس Ursatius وإيثاكوس Ithacus ، ومع أن  
القديس أمبروز كان يضطرم حماساً لقمع عبادة اليهود والوثنيين ، فقد احتج

على ارتكاب هذه الجريمة ، وشهر بها القديس مارتن في مرارة وحدة واعتبرها  
جرما فاحشا ، وأبى الاتصال بالكهنة الذين شاركوا في ارتكاب هذا  
الجرم ! وطالب القديس كرايسوستوم Chrysostom بأن تباح للملحدين  
حرية الكلام وعقد الاجتماعات ، وصرح بأن إعدام الملحد ، إقرار بارتكاب  
جريمة لا سبيل إلى غفرانها أو التكفير عنها !

وبمثل هذا الحق كان يهاجم الكثيرون من القديسين فكرة الإعدام  
ومشاركة رجال الأكليروس في تنفيذها ، ولم يكن هذا غريباً ، لأن العرف  
الذي أقره في الكنيسة ترتليان ولاكتانتيوس كان يحرم على المسيحي أن يقدم  
تحت أي ظرف على قتل رفيق له بانهام يؤدي إلى إعدامه ، ويحظر عليه أن  
يشارك - قاضياً أو جندياً أو جلاداً - في قضيته من هذا النوع !

وقد أشرنا إلى هذا عند الكلام على « نزوع الآباء الأولين إلى التسامح » ، وقلنا  
إنهم هاجموا الاضطهاد ، ونفروا من مزاولته ، وسأروا دينهم السمع في دعوته  
للحب وتبشيره بالسلام .

كان هذا مسلك الكنيسة يوم كانت السلطة تموزها ، ويوم كان رجالها  
يخشون أن يكونوا موضعاً للاضطهاد ، وأن يعانون من أمره مالا طاقة لهم به ،  
فلما اكتملت السلطة للكنيسة ، وأصبحت ذات حول وطول ، شرع المتزمتون  
من رجالها في تغيير سياستها بصدد عامة الناس أول الأمر ، ثم بصدد رجال



الكلهوت بعد ذلك ، على أن هذا التغيير في سياستها ، لم يمنع رجال الأكليروس من أن يتوسلوا إلى القضاة ، كلما قدموا إليهم مذنباً ، أن يتجنبوا الحكم عليه بالإعدام ، أو بتر عضو من أعضائه ، لأنهم إن أغفلوا هذا التوسل ، أذنبوا وعرضوا أنفسهم لملامة الهيئة الإكليركية ! ! وكانت هذه القاعدة في أول أمرها ، تعبيراً عن دعوة المسيحية لحب البشر ، ونشر الصفاء والوثام بين الناس ، والرغبة في إنقاذ حياة المتهمين ، ولكنها فسدت آخر الأمر ، وأصبحت رياء قبيحاً ونفاقاً عمقوتاً ، فقرر بونيفاس الثامن ، أن يشفع الكاهن للذنب عند تسليمه إلى السلطة الزمنية . وإن كان على يقين بأن شفاعته لن تجاب . . ! واستمر هذا اللون من التوسل الشكلي أمام محاكم التفتيش ، وإن كان بعض الكهان أنفسهم ، قد أدانوا المهرطقة وقرروا الإعدام عقاباً لها . . ! وقرر إنوسنت الثامن حرمان كل حاكم يغير حكمهم أو يتباطأ في تنفيذه أكثر من ستة أيام . . !

#### الفريسي أوغسطين وملائته

ولكن الكاتب الذي قدر له أن يمكن لنظام الاضطهاد ، ويزود أنصاره المتأخرين بالحجج المؤيدة للقمع والسكج ، كان القديس أوغسطين + ٤٣٠ الذي أسكت اسمه كل نزاع إلى الرحمة زماناً طويلاً .

كانت كتاباته شعار كل من نزح إلى الاضطهاد ، وبها برر الذين زاولوه مسلكهم إزاء من أنكروا عليهم ذلك . وعلى هذا القديس تقع تبعه الاضطهاد أكثر مما تقع على عاتق من أنشأ محكمة التفتيش !

وقد انحدر هذا القديس عن أب من أشرف الوثنيين ، وأم من أشد الناس تمسكا بالنصرانية ، ودان بالمانوية فترة ارتد بعدها إلى اعتناق المسيحية ، كما يقول في كتابه « الاعترافات » ، (١) وقد أضحى بعد التنصر مثالا طيبا لغير من المتدينين ، وكان رقيق الحس تقى النفس ، كما كان لاهوتيا ممتازا وفيلسوف غلابا في مناقشة الوثنيين ومن إليهم من الملحدين . وكانت حياته مزاجا غريباً من أعظم العوامل المتباينة في تطور هذا العقل الفريد . إن أهواء شبابه الجامح ، وغلوه في الإلحاد الذي زاوله مدة طويلة ، لم يحجب بهاء عقله الممتاز الذي كان يستوعب كل ميادين المعرفة ، إن عبقريته ومعرفته بالرجال والكتب ، وشذا القدسية التي خلعت على كل كتاباته المتأخرة سحرا ، وغير هذا من مميزاته ، قد جعله سيد العقل في الكنيسة كلها ! إبان عصره ، فطبع الكنيسة بعده بطابع روحه الغلاب ، وجعل رسالته أن يرسم لاهوت الكنيسة في دقة ، وأن يهذب مبادئها ويضم مختلف أجزائها إلى سلطة واحدة وكل متناسب الأجزاء .

كان هذا القديس الممتاز ، أقوى من عرفت الكنيسة من المدافعين عن العقائد التي أدت إلى مبدأ الاضطهاد ، وإذا كان قد نفر من النزوع إلى الاضطهاد حيناً من الزمن ، فسرعان ما أسلمته إليه بالضرورة مبادئه ، وأضحى يمثل اللاهوت المتعسف المتزمت الذي يقف عند حرفية النصوص لا يتجاوزها ، وفي آثاره اللاهوتية فيض من النصوص يشهد بما نقول .

(١) انظر تفصيل هذا في كتاب تاريخ الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط للاستاذ يوسف كرم ص ١٩ وما بعدها - طبعة اولى ، وانظر فيمايلي ذلك كتاب Lecky بوجه خاص ويوري Bury وهو ايت A. D. White بوجه عام



## انتصار القديس أوغسطين الاضطهاد

صاغ القديس أوغسطين مبدأ الاضطهاد لهداية الأجيال التالية ، وأقامه على أساس من الكتاب المقدس ، فاستند إلى كلمات فاه بها المسيح في مثل من أمثاله التي كان يسوقها لحوارييه إذ قال مامعناه : أجبروهم على اعتناق دينكم *Compelle Intrare* . . . وتمشيا مع هذا المنطق ، سلم أوغسطين بمعاينة الملحد بالنفي والجلد وفرض الغرامات ، ووضع للكنيسة دستورا تلتزمه إزاء كل حركة إلحادية ، فضت الكنيسة بعد هذا جاهدة في تحقيق هذا الدستور . . . !

وكم كان غريبا مصير هذا الرجل ! إن معاصريه قد فقدوا بعد عدة قرون من الزمن ، كل ماتها لهم من سطوة ونفوذ ، إن أسماءهم لا تزال حية ، وكتبهم يتداولها العلماء والرهبان ، ولكن تغير مناهج التفكير والمشاعر ، قد أقصاهم عن مراكز الاهتمام عند الناس ، أما أوغسطين فقد تخطت به عبقريته الزمان والمكان ، ومكنت لكتاباتاته أن تعيش في قلوب الناس حية تسيطر على حركاتهم وتبين على توجيههم ، وتهذب أجمل وأسوأ العواطف في طبيعتهم .

ومن كتابات هذا القديس في البر والتقوى والقضاء والقدر والأعمال الخيرية وغيرها ، استمد البروتستانت أعظم أسلحتهم قوة وصلابة ، وفي تزمته البادى في نظرياتهم ، وفي سمو سطوته وعبقريته ، عرف المذهب الكاثوليكي أخص مميزات ، وبهذا وجد الكاثوليك والبروتستانت في كتاباته ، أصدق تعبير عن عواطفهم الدينية . وقد أخفى المتزمتون من أتباعهما تعصبهم وراء اسم

هذا القديس العظيم !

وقد استمد أوغسطين من عقيدة الخلاص ، بعض حججه التي دافع بها عن مبدأ الاضطهاد ، واستقى بعضها الآخر من « العهد القديم » ومن رأيه أن من دلالات الرفق وشواهد الرحمة ، أن يعاقب المللحدون إذا كان هذا العقاب ينقذهم من العذاب الأبدي ، الذي ينتظره المرتدون عن دينهم القويم ، إن الهرطقة توصف في الكتاب المقدس ، وكأنها نوع من الفسق والمروق وعبادة الأوثان ، إنها أسوأ أنواع القتل ، لأنها قتل للنفوس ! إنها نوع من التجديف Blasphemy ومن أجل هذا اقتضت العدالة أن ينال أهلها ما يستحقون من عقاب ، وإذا كان « العهد الجديد » لا يقدم مثالا لرسول استخدم القوة والعنف في نشر الدين ، فقد كان هذا لأن عصرهم قد خلا من وجود أمير يعتقد المسيحية ، ولكن ألم يذبح الإشع Elijah بيديه أنبياء بعل ؟ ألم يحطم حزقيال Hezkial ويوشع Josiah وملك نينغه ونبختنصر Nebuchadnezzar بعد ارتداده ، ألم يحطم هؤلاء بالقوة عبادة الأوثان في أقاليمهم ؟ وألم يكونوا موضع ثناء محمود من أجل ما انطوا عليه من وجوه التقوى ؟

على أن من الإنصاف أن نقول إن أوغسطين وإن كان قد زاد عن القوانين التي استخدمت في مناهضة « الدوناتست » ، ورغم أنه صرح بأن الهرطقة أبشع الخطايا ، ومن ثم وجب عقاب أهلها ، فقد لبث في تناقض ملحوظ ، إذ بذل جهدا كبيرا لكي يحول دون أن تكون العقوبة صارمة ترتفع الى مرتبه الإعدام وقد حذر ، بل أمر اصحاب السلطة بأن يقصروا العقوبة على النفي ، وحذروهم



إن أبوا الاقتصار على ذلك ، بأن يمتنع الكهان عن تبليغهم عن الملحدين ! بل لقد حاول في نجاح أن ينقذ بعض الذين صدرت الاحكام بإدانتهم ، وإن لم يمنع هذا من أن نقول إنه كان يطالب بعقاب الملحدين ، ويقيم حق العقوبة على أساس بشاعة الاتهام الذي اعتبره أعظم الجرائم إطلاقا ، بل لقد اعتبر التجديف هرطقة ، وقرر معاقبة أهله بالإعدام عدلا ، واستشهد على عدالة ذلك ، بمثل وردت في « العهد القديم » - وإن كان قد دافع عن الدوناتست الذين تقرر إعدامهم في عهد قسطنطين ، وامتدح غفران ذنوبهم ، وإلغاء الحكم الصادر ضدهم ! وصفوة الرأي عنده أن العدالة تقتضى أن يعاقب الملحدون بالإعدام ، ولكن من العدالة ألا يأتزم رجال الدين حرفية العدالة الدقيقة ! وكان طبيعيا بعد هذا أن يهاجم الحرية الدينية في غير رفق .

#### عقبة الخلاص والاضطهاد

نفر الأكليروس زمتا طويلا من قمع الهرطقة بإعدام أهلها ، وكان هذا متمشيا مع مبدأ المسيحية في التبشير بحب الناس بعضهم بعضا على ما أشرنا في مقدمة الكتاب ، ولكن النفور من فكرة الإعدام ، لم يمنع من حماسة الأكليروس في مقاومة العبادات التي لا تساير تعاليم المسيحية ، ومطاردة أهلها في غير هواده ، وإقصاء القائمين بأمرها والمروجين لها خارج الامبراطورية وعن عقيدة الخلاص صدر التفكير في الاضطهاد ، إذ أخذ المسيحيون .  
يبشرون بنظرية مؤداها أن « الخلاص » لا سبيل إليه إلا عن طريق الكنيسة الكاثوليكية وحدها ، وروجوا للايمان بأن الذين لا يدعون للكنيسة

ويعتقدون بصدق نظرياتنا ، تحيق بهم اللعنة الأبدية لا محالة؛ فأفضى هذا الاعتقاد إلى الاضطهاد والتنكيل بكل من أبي الإذعان للكثلكة ، واعتبرت الهرطقة أعظم خطيئة ، لا يقاس ما يتبلى به أصحابها في الدنيا من صنوف الآلام بما ينتظرهم من عذاب الجحيم ، وأضحى إنقاذ الدنيا من أعداء الله واجبا مقدسا ، والاتصاف بالفضيلة لا ينهض عذرا للهروق ، فالطفل على برأته وخلو ساحته من الخطايا ، متى مات من غير تعمد ، قضى بقية حياته في جهنم ، فالطبيعي بعد هذا أن يستهدف المتهمون بالهروق لأشد صنوف العذاب !

كان الاضطهاد أروع النتائج التي نجمت عن عقيدة الخلاص ، لأن الإيمان متى اشتد ، ارتفع فوق كل احتمال للجدل ، واعتقد أهله أن كل من يخالفهم في الرأي ، مصيره جحيم يصل في شقاء أبديا ! لأن الإيمان متى كان متزمنا متعسفا أغرى أصحابه باضطهاد كل من لا يدين بدينهم ويساير نزعاتهم ، لا يحد من غلوهم في الاضطهاد ، إلا حاجتهم إلى السلطة ! وقد يكون ضحايا هذا الاضطهاد من الغيرية ونبل النفس واحترام الكرامة ، بحيث يثير اضطهادهم في النفس كل إشفاق ، ولكن فضائلهم تبدو عند غلاة المتزمتين ردائل تستحق كل عقاب صارم ، لأن هذه الفضائل هي التي شجعتهم على التمسك بالحادهم والنسبت بما يبدو في نظر هؤلاء المتزمتين ضلالا مينا ، والإصرار على الضلال أحق بالعقوبة الصارمه من التردد في اعتناقه أو عدم انتظرف في اتباعه !

اضطهاد المسيحيين بعضهم ببعض في مصر

المعروف من تاريخ الأديان أن الاصطدام الذي يقع في الدين الواحد من



المذاهب المتقاربة بعضها والبعض الآخر ، يكون أشد وأعنف من الاصطدام الذي يقع بين الأديان المتباعدة ، وحسبنا في التدليل على عنف الاصطدام بين المذاهب المتقاربة في الدين الواحد ، ما وقع في مصر قبيل الفتح الإسلامي ، بالإضافة إلى ما سنعرفه عن الاصطدام بين البروتستانية والكاثوليكية بعد :  
فكر هرقل بعد انتصاره على الفرس في توحيد المذاهب المسيحية كلها ، وعقد لهذا مجمع خلقدونية ، فأقر البطارقة الذين يمثلون فيه شتى المذاهب المسيحية مذهباً واحداً ، أراد فرضه على المسيحيين في مصر عن طريق « قيرس » ، وكان بنيامين كبير أساقفة القبط في مصر ، وكان حبيبا إلى نفوس أهلها ، شديد التعصب لمذهب اليعاقبة الذي كان يدين به أهلها ، فلما قدم الإسكندرية « فيرس » في خريف عام ٦٣١ م فر بنيامين ، وأثار فراره الملح في نفوس المصريين ، فتنكر اليعاقبة والملكانيون على السواء رغم محاولته التظاهر أول الأمر بالمسالمة والرغبة في التزام الإقناع بالحجة ، ولكن هؤلاء قد اعتبروا الدعوة الجديدة بدعة وكفرا وضلالا ، فنزع هذا إلى الشدة والبطش والتعذيب المحض . ووقع الاضطهاد الأعظم واستمر عشر سنوات حسوما ، عذب فيها أخو الأسقف الأكبر بنيامين بإحراقه بالمشاعل وخلع أسنانه وتهديده بالإغراق حتى إذا أمعن في الإباء ألقى في البحر وراح غريقا . . . !

وعذب صمويل في ديره بالصحراء . . على ما عرفنا عند الحديث على شهداء المسيحية في مصر . وجلا الكثيرون عن مصر من جراء هذا البطش الآثم ، ولاذوا ببلاد النوبة وأثيوبيا فراراً إلى الله بدينهم ، واعتنق غيرهم المذهب

الجديد تقيّة ورياء (١)

الازعاجه لاكمنا.. كما وانفجار الاضطهاد

استراحت الكنيسة الغربية بعد أن ختمت عبادة الأوثان في الامبراطورية الرومانية ، وعاشت عدة قرون لم تشمر إبانها بحاجتها إلى مزاوله الاضطهاد - إلا في حالات نادرة - لأن المبدأ الذي صاغته ، قد أذعن له الناس في الامبراطورية الواسعة طولا وعرضا ، وإن كان بعض الملحد،ين قد أدينوا من جراء مزاولتهم للسحر، فأحرق Alexius Comnenus أثنين أو ثلاثة من هؤلاء السحرة ، وكان هذا مصير غيرهم في فرنسا في مطلع القرن الحادى عشر ، وفي كولونى وإيطاليا أحرق بعض الكاثاريين . وهم طائفة من الملاحدة الذين دانوا بالمانوية ، وقد نشأ مذهبهم في كل جنوبي أوروبا وغيرها في العصر الوسيط ، ويكاد يكون هؤلاء هم ضحايا الاضطهاد الدينى في أوروبا خلال عدة قرون سبقت معارك الالبيين (الآليبيين)

ومعنى هذا أن الكاثوليكية على هذا الوضع ، كانت مشبعة لحاجات أوروبا العقلية ، فلم تكن ظلما وبغيا يفضى الشعور به إلى الثورة عليه والتمرد على أهله

(١) انظر كتاب بتر « فتح العرب لمصر » طبعة عام ١٩٣٣ الفصل الثالث عشر « الاضطهاد الاعظم لتقيّة على يد فيرس » ص ١٤٩ وما بعدها . وانظر الفاروق عمرالدكتور هيكل باشا ص ٢ ص ٧٦ - ٧٨ وخلاصة مذهب اليعاقبة أن الطبيعة الالهية والبشرية امتزجتا في المسيح فصارتا فيه طبيعة واحدة ، فكان عند التجسد ذاتيتين ، أما بعد فصار ذاتية واحدة أما مذهب الملكانية فخلاصته « أن الابن مولود من الآب قبل الدهور ، غير مخلوق وهو جوهره ونوره ، والابن انمجد بالانسان الماخوذ من مريم فصارا واحدا وهو المسيح »



ولم تكن مذهبا مستقلا يعتنقه البعض ولا يدين به غيرهم ؛ كانت نشاطا يتخلل جزءا من وسط أوروبا وغربها على أقل تقدير ، ويؤثر في نظامها الاجتماعي كله ويستوعب مختلف تياراته ، فعادات الناس وتقاليدهم وقوانينهم ودراساتهم ، وكل ما يستمتعون به من وجوه اللذات المباحة وأسباب الترف الحلال ... كلها صدرت عن التعاليم الدينية كإفهامها الكنيسة الكاثوليكية ، صاحبة النفوذ طوال هذه القرون ...

كانت الكنيسة قلب العالم المسيحي وروح له ، ومصدر وحيه ومبعث إلهامه ، وعندها التقت التيارات العقلية والمشاعر الدينية والنزعات الوجدانية ، فلم يكن من الطبيعي إبان هذه المرحلة من حياة أوروبا ، أن يظهر الملاحدون المارقون الذين يستخفون بدين البلاد وعرفها ، ويضنون باحترام أهل القداسة من رجالها ، ومن هنا كانت السلطة الدينية التي تمثلت في رجال الكنيسة ، وبها شرعوا - يوم بدأ العالم الأوربي يستيقظ من سباته - في كم الأفواه وقمع الفكر الحر ، ومطاردة كل من خالفهم الرأي - على نحو ما سنعرف بعد قليل .

والواقع أن استجابة المسيحيين في هذا انعصر لتعاليم الكنيسة ، كانت أمرا طبيعيا ، بعد غزوات البرابرة الذين نزلوا بأوروبا ، واعتنقوا المسيحية وامتلاوا احتراماً لرجالها ، مع عجزهم عن مزاولة النقد العقلي ، بحكم ما كانوا عليه من جهل وبدأوة .

### عودة الكنيسة الى مقاومة الروح الجدير

على أن انقلاباً قد شمل مرافق الحياة في أوروبا كلها ، وأواخر العصر المدرسي ، فهضمت الكنيسة لمقاومة الجراح من التيارات العقلية ومطاردة أهلها ، حتى عاقت شيوع المعرفة الجديدة ، وأطفأت نورها بالدم .. ! وعندما بدأت حركة الإحياء العلمي ، بدأت حركة انحلال خلقى كان على الكنيسة أن تقاوم أتباعه اتقاء لشره ، وحرصاً على تجنب ما ينتظر أن يسفر عنه من تقويض الدين والقضاء على نفوذ رجاله .

### مذبحة الألبيين ( الألبيجيين )

وفي مطلع القرن الثالث عشر ، نضج نظام الكبيح ، ففي سنة ٢٠٨ مهد إنوسنت الثالث لنظام محاكم التفتيش ، وفي العام التالي شرع دى مونفورت De Monfort فى قتال الألبيين ( الألبيجيين Albigeois ) بتحريض من البابا إنوسنت الثالث ، وفى نفس العام ( ١٢٠٩ ) أصدر مجلس أفينون Avignon قراراً دعا فيه القساوسة إلى مطالبة السلطة المدنية باستئصال الهرطقة ! وهدد البابا إنوسنت كل أمير يرفض الاستجابة لهذه الدعوة بإصدار قرار الحرمان ضده . وبعد ستة أعوام ( ١٢١٥ م ) قرر بمجمع لاتران ، أن يقسم كل حاكم يطمع فى أن يكون فى عداد المؤمنين ، بأن يجاهد ما وسعه الجهاد ، حتى يستأصل من إقليمه من تسممهم الكنيسة بالهرطقة . ولنعدي إلى الحديث عن مذبحة الألبيين :



فشا الإلحاد في لنجيدوك في الجنوب الغربي لفرنسا ، على يد الآليين من رعايا أمير تولوز ، وكان هذا في عهد إنوسنت الثالث الذي بلغت البابوية على يديه أوجها ، فأشار على أميرهم أن يستأصل الهرطقة من إمارته ، فأبى الأمير أن يذعن لمطلبه ، وعندئذ نهضت الكنيسة لإبادة الحركة واستئصال أعوانها ، فأعلنت غفران كل ذنب ارتكبه من يجاهد للقضاء عليها ، وصبت عذابها على أعدائها ولو كانوا نساء أو أطفالا ، وتعقبتهم شنقا وحرقا وإعداما ، حتى انتهت الحروب الدامية التي أثارها باستسلام الآليين ، وإن بقيت آثار الهرطقة قائمة في نفوسهم !

استسلم الآليون في عام ١٢٢٩ م وخضع للكنيسة أمير تولوز ، وكان أخطر ما أفضت إليه هذه المعارك الطاحنة ، أن أدخلت الكنيسة في مبادئها العامة هذا المبدأ : يحتفظ الحاكم بعرشه ، متى قام بواجبه في استئصال الإلحاد ، فان تردد في الاستجابة لأمر البابا باضطهاد الملحدين ، أكرهه على الطاعة وصودرت أملاكه وبيعت لأعوان الكنيسة ، وعرض نفسه للاعتقال والإذلال ؛ وبهذا أقر البابا نظاما إلهيا تيوقراطيا تخضع فيه كل مصلحة لواجب العمل على حفظ الدين من كل أذى يمسّه ..

وسنرى أثر هذا المبدأ الخطير في تاريخ الحرية الدينية والتقدم العلمي في الفصول التالية ، ولا سيما ما اتصل منها بمحكمة التفتيش .

تغيب

نرى مما أسلفنا أن الكنيسة قد نفرت في عصورها الأولى من

اضطهاد خصومها ، واستجابت لمبادئ الدين المسيحي الذي نزل مبشرا بالحب  
 داعيا إلى توخي الحسنى حتى في معاملة الخصوم والمعتدين . وأيد هذا  
 النزوع ، شعور رجال الدين بحاجتهم في عصرهم الأول إلى سيادة مبدأ النسخ ،  
 لأنهم كانوا مضطهدين من جمهرة الناس وأكثر الحكام على السواء ، فلها تهيأت لهم  
 السلطة التي تمكنهم من اضطهاد خصومهم ، نسي المتزمتون منهم مبادئ  
 دينهم السمح الكريم ، ونزعوا إلى التشكيل بكل من عصى أمرهم أو خالف  
 رأيهم ! ووجدوا فيما ورثوه عن بني إسرائيل ، وأخذوه عن أمثال القديس  
 أوغسطين ما أغرام بالاضطهاد ، وأيد سياسة النزاعين إلى الكبح والتشكيل  
 من الأباطرة والسكان على السواء . !

ومهدت مذبحه الألبيجيين لقيام محكمة التفتيش التي أثارته الهلع في العالم  
 الكاثوليكي طولا وعرضا ، فلنقف عندها قليلا :



## محكمة التفتيش في العالم الكاثوليكي

نشأة محكمة التفتيش - من نظام محكمة التفتيش - محكمة التفتيش في أسبانيا - لماذا انتصر الاضطهاد على الاسلام في اسبانيا - التفتيش على خصومها - من آثار محكمة التفتيش - من وجوه التعذيب عند محكمة التفتيش - اثاره الالم والمهلع في النفوس - احصاء ضحايا محكمة التفتيش - بين اضطرار الحقيقة العلية والعادة الدينية - تدرج الكنيسة من الرحمة الى التنكيل.

### نشأة محكمة التفتيش

جندت الكنيسة أصحاب السلطة الزمنية في خدمة تعاليمها، والتمكين لإرادتها، بالإجراءات التي انتهت إليها بعد إبادة، الأليبيين، واستتصال حركتهم على النحو الذي عرفناه في الفصل السالف، ولكن الكنيسة لم تقنع بذلك، واخذت تتعقب الهرطقة في مظانها السرية (١) إذ ليس يكفي القضاء عليها بالعنف حين يستفحل أمرها، ولا النص على إشراك السلطة التنفيذية في إبادةها، متى ظهرت واستشرى داؤها، وإذن فلتأخذ الكنيسة حذرهما، فترصد عيونها يفتشون عن خصومها، وتقيم المحاكم لتروع الملحدين بصرامة أحكامها، . . . وقد عهدت الكنيسة إلى آباء الدومنيكان أداء هذا الواجب الديني الجليل،

(١) استعنا بكتابنا قصة النزاع بين الدين والفلسفة في الشطر الاول من حديثنا هذا عن محكمة التفتيش، والشطر الاول من حديثنا عن حركة الإصلاح الديني

وأنشأ البابا جريجورى التاسع فى عهد لويس التاسع ملك فرنسا محكمة التفتيش أو ديوان التحقيق Inquisition عام ١١٢٣ م ، ومكن لهذا النظام أمر بابوى أصدره إنوسنت الرابع عام ١٢٥٢ م وضبط به نظام الاضطهاد كجزء رئيسى من السكيان الاجتماعى لكل مدينة أو دولة ! وكانت هذه أبشع أداة لسكب التفكير النزيه والضمير الحر ، لم يعهد التاريخ لها نظيرا .

### من نظام محكمة التفتيش

وقد اختير الرهبان ووكل إليهم السعى باسم البابا لاكتشاف الملحدين ، وكانوا بحكم عضويتهم فى ديوان التحقيق أصحاب نفوذ واسع النطاق ، لا يخضعون لرقابة أحد ولا يسألون عما يفعلون ، وتعاونت السلطات التنفيذية على إقرار هذا النظام ، فسدت القوانين الصارمة للتكيل بالمارفين ، وتساوى فى هذا أهل الغفلة مع أحرار الفكر من الحكام ! وحسبنا شاهدا على هذا موقف فردريك الثانى فى القرن الثالث عشر ، فقد شرع القوانين التى تقضى بإهدار دم الملحدين ومصادرة أملاكهم ، وإحراق غير المرتدين إلى الدين ، وسجن من تاب وعاد إلى اعتناق دينه ، وإعدام من عاد فارتد ملحدًا . . . إلى آخر ما انتهى إليه ، مما لا يتفق مع رجل اشتهر بحرية التفكير .

وقد توطد هذا النظام وشاعت المحاكم حتى غطت العالم المسيحى الغربى بشبكة لا سبيل إلى انفاتها ، وكان أعضاؤها فى شتى البلاد على اتصال وتعاون يهدف إلى تحقيق مهمتهم الخطيرة ، وإذا كانت انجلترا قد أفلتت من



برائن هذا النظام ، فان حكومتها في عهد هنرى الرابع والخامس ، قد قمت  
المرطقة باستعمال الخازوق تحت تمثال معين ( عام ١٤٠٠ ، وقد تقرر إلغاء  
هذا النظام عام ١٥٣٣ وأعيد في عهد ماري ثم أبطل في عام ١٦٧٦ م )

### محكمة التفتيش في أسبانيا

أما في أسبانيا فقد نهضت محكمة التفتيش ( القديمة في أراجون ) بمقاومة  
الاليين - على ما عرفنا منذ حين - فلما انتهت من قتالهم بالزامهم طاعة  
الكنيسة ، ولت وجهها شطر اليهود ، وصبت عليهم العذاب ألوانا ، متذرعة  
بأثفه الأسباب وأوهن الاتهامات ، واستجابت إيزابيلا وزوجها فرديناند  
إلى نصيح راهب دومنيكى يتقد تعصباً - هو توركويمادا Torquemada - والنمسا  
من البابا سكستوس الرابع إصدار مرسوم بإنشاء محكمة التفتيش ، فنشأت هذه  
المحكمة في قشتالة في عام ١٤٧٨ ثم في اشبيلية وغرناطة وغيرها من مدن أسبانيا  
بعد ذلك .

وقد استفدت الكنيسة جهدها في إقناع المسلمين المقيمين في أسبانيا ، لكي  
يرتدوا عن دينهم ويعتنقوا المسيحية ديناً ، وعلى غير جدوى ما بذلت من جهود ،  
فاستجمعت محكمة التفتيش كل قواها ، واعتصمت بالجرأة والتعصب ، وصبت  
عذابها على المسلمين في غير رفق ولا عدالة ، حتى اعتنق النصرانية من خار في  
ميدان الكفاح ، وهاجر من حار بين التمسك بعقيدته ، واحتمال آلام العذاب  
وفي عام ١٦٠٩ و ١٦١٠ تم جلاء ألوف المسلمين عن أسبانيا ، بعد أن أغرقوا

بدمهم أرضها ، وكتبوا بمقاومتهم أنصع الصفحات في تاريخ الجهاد في سبيل الله .

### لماذا انتصر الاضطهاد على الاسلام في أسبانيا

انتصر هذا الاضطهاد الدامي ، في مقاومة الإسلام والتكامل بأهله في أسبانيا ، لأنه كان من وقدة العنف بحيث لم يبق من أتباع الدين أحدا ، إنه لم يقاوم فكرة الإيمان من حيث هي كذلك ، ولو نزع إلى شيء من هذا لكان الفشل مصيره المحتوم ، ولكنه أبقى على مجال الإيمان ، وحاول أن يغير مجراه ، فحوله في نفوس الناس من الإسلام إلى المسيحية ، ولم يكن هذا بالشيء الهين اليسير ، ولكن الاضطهاد الدامي قد حاول أن يحدد الإيمان الإسلامي في قلوب أهله ليغرس مكانها الإيمان المسيحي ، قد أخفق في تحقيق غايته ، مع الكثيرين الذين أبوا الإذعان لما أريد بهم ، فسلط الاضطهاد عليهم كل ويلاتهم وطاردهم حتى غادروا البلاد إلى حيث يجدون الأمان .! ونشأت الأجيال التالية على الإيمان بالمسيحية ..

### أساليب محكمة التفتيش مع خصومها

وكان من بين الوسائل الفعالة في مطاردة المارقين ، « فرمان الإيمان » ، الذي جند الناس في خدمة ديوان التحقيق ( أى محكمة التفتيش ) وحتم على كل امرئ أن ينهى إلى مركز الديوان في غير تباطؤ ، ما يترامى إلى سمعه من شأن الملحدين ، وللقصرين عقابهم الدنيوى والدينى معا ، ومن أجل هذا لم ينبج أحد من اشتباه جيرانه ، وإساءة الظن به حتى في نطاق أسرته ، ولم يكن ثمة أبرع

كما قبل  
عيسى الناصر  
سيف قال  
أنى أعرف ما  
يدور سمه الرجل  
رؤيته فى  
خبره



من هذه الحيلة الماكرة في قهر السكان جميعا ، وقع نزاعهم الحرة وشل تفكيرهم الطاق ، وردهم إلى الطاعة العمياء ، لأنها رفعت التجسس إلى مرتبة الواجب الديني الخليلق بالإكبار !

أما الطريقة التي اتبعت في محاكمة المتهمين بالهرطقة في أسبانيا ، فكانت تنكر كل طريقة معقولة لتوكيد الحقيقة ، فلم يكن المتهم بريئا حتى يثبت اتهامه ، بل اعتبر كل متهم مذنبا حتى تثبت براءته - إن كان هذا ممكنا ! ومن ثم وكلوا إليه عبء التذليل على براءته . . ! وكان قاضيه هو المدعى عليه ، وكل من تقدم للشهادة ضده ، قبلت شهادته ولو كان من أرباب السوابق ، كانت قواعد ادعاء الشهود عليه مرنة طلقة ، وعلى عكسها كانت القواعد التي وضعت لرفض شهود الدفاع ، من حق اليهود والمغاربة والخدم والأقارب إلى الدرجة الرابعة ، أن يقدموا ضد المتهم أدلة تثبت إدانته ، ولكنهم ممنوعون من الشهادة في صالحه ! والمبدأ الذي اعتنقته محكمة التفتيش كان يقول : لأن يدان مائة بريء زورا وبهتانا ، ويعانون العذاب ألوانا ، خير من أن يهرب من العقاب مذنب واحد . . ! ومن ساءم في تقديم الوقود الذي يحرق به الملحد فقد استحق المغفرة ا على أن المحكمة مع هذا ، كانت تشفق على نفسها من أن تتهم يوما بالقسوة الصارمة ، إذ كانت تنفى الحكم بإهراق الدم ، فلا تحمل تبعة الإعدام على « الخازوق » أو نحوه ، فكان القاضي الإكليركي يعلن أن السجين ملحد لا أمل في توبته ، ثم يسلمه إلى السلطات الزمنية ، ويلتمس عندها التزام الرحمة والرفق في معاقبته . . ! على ما عرفنا من قيل . وكان المعروف أن السلطة الدنيوية لا تستجيب لهذا

المطلب ، بل لا تملك إلا إعدام المتهم بالهرطقة في مدة لا تتجاوز الأيام الستة ، وإلا اتهمت بالعمل على ترويع الإلحاد . . ! وقد كلن القانون يلزم جميع الأمراء والموظفين بالإسراع في تنفيذ العقاب ، فيمن أسلمهم إليه ديوان التحقيق محرومين من الكنيسة .

من آثار محكمة التفتيش :

أشاعت هذه المحاكم روح الصرامة والقسوة في نفوس الناس ، وكان لطريقتها في الاضطهاد والتنكيل ، تأثير بالغ السوء في فقه القانون الجنائي في أوروبا كلها ، ويرى الأستاذ دلي ، Lea مؤرخ ديوان التحقيق ، أن أعظم الأخطار التي نجمت عن محكمة التفتيش ، ربما بدت في تقليد أكبر شطر في أوروبا لطريقتها ، حتى أواخر القرن الثاني عشر ، في معاملة من كان موضع اتهام ويرى د جيون أن كراهية الإلحاد ، كانت نوعا من الجرائم المعدية ، وأنها نشأت عن نظرية الخلاص على ما أسلفنا من قبل ، بل إنها أضرت بقيمة الحقيقة في نظر الإنسان فأصبح من المشروع بل من الضروري اتخاذ كل وسيلة تؤدي إلى تقوية المعتقد الديني ، بالغ ما بلغ زيفها وخداعها ! أما تقدير الحقيقة لذاتها فإنه لم يحتل مكانه واضحا في عقول الناس إلا في مطلع العصر الحديث - في القرن السابع عشر .

وقد ساعدت هذه المحاكم على إفساد الأخلاق ، إذ طالما أدى حسد العلماء بعضهم لبعض ، إلى اتهامات لا يبررها سند من الحق ، وقد راح ضحية هذا



الحسد الكثيرون ، ولم يكن هذا يبدع على محكمة يدرك قضائتها خطأ الاتهام  
وتداعيه ، ولا يمنعمهم هذا الإدراك من إدانة المتهم ..!

من وهو التعذيب عن محكمة التفتيش

ولم يكن الغرض من التنكيل بالملحدين وإعدامهم ، مجرد التخلص من  
شروعهم ، بل كان يهدف مع هذا إلى إثارة الفزع في نفوس الذين يوسوس لهم  
الشیطان بالمروق ، ويرمى إلى أن تتكفل الصرامة بتطهير القلوب من أدران  
الهواجس وحفظ الناس في أمان ، ولم يجر الإعدام على وجهه من السرعة  
يكفل اتقاء العذاب الممض والألم المبرح ، بل جرت العادة بأن يحرق الملحدون  
أحياء ، وبأن تكون النار التي تلتهم أجسادهم بطيئة لا تأتي على ضحيتها دفعة  
واحدة ! وكانوا يبررون إطالة العذاب على هذا النحو ، بأنه يبيح لهم فسحة  
من الوقت ، يستطيع أن يعلن فيها توبته ..! وهذا الإحراق تسبقه مراحل من  
التعذيب بالكي بالنار ونحوه تختبر فيها صلابة العزم وعمق الإيمان وقوة الإرادة ،  
وهذا الأسلوب في اختبار المتهمين ، قد حدده أمر بابوي أصدره إنوسنت  
الرابع ، وأعاد توكيده كليمان الرابع في أمر بابوي آخر ؛ وقد جرى  
العرف بين رجال ديوان التحقيق ، على أن يواصلوا تعذيب الملحد الذي يقر  
بذنبه ويعترف بخطيئته ، عسى أن يؤدي هذا إلى اكتشاف شركائه في جريمته !  
وبمثل هذا العذاب الجسماني ، عوقب الذين زاولوا التفكير الحر في البحث  
عن الحقيقة .

ولسكن كيف يسهل على اللغة أن تصور العناء العقلي الذي صاحب  
هذا العذاب الجسماني ..؟ إن من يرتكب في أيامنا الحاضرة جريمة يعاقب

عليها القانون ، ينال - متى كان راشداً - ما قدمت يداه ، وينجو من العقاب كل من تربطهم به صلوات رحم وقربي ، إلا إذا كانوا شركاءه في جريمته ، وعلى غير هذا جرى الحال في تلك الاضطهادات ، في الأغلب والأعم ، فكانت تقضى القوانين بأن يحمل الأبناء والأحفاد في سلسلة الأبناء . تبعة الجرم الذي يدان به الآباء ، فيسلبون حقهم في مباشرة الكثير من الوظائف ، ومزاولة الكثير من المهن . . ! ولم يسكن الذين يلاقون على يد محكمة النفتيش حتفهم ، أشباه الذين راحوا ضحية الاشتغال بالعرافة ومزاولة السحر ؛ مجرد نساء شمطاوات لا وزن لهن ولا قيمة ، وإنما كان المتهمون بالإلحاد رجالا في ربيع العمر ، تضطرم الحماسة في قلوبهم ، وتتقد نفوسهم نشاطا ، وكان الذين ينطوون لهم على الحب والإعزاز ، لا يساورهم الشك في أن الآلام التي يكابدونها في دنياهم ، ليست الا نذيرا بما ينتظرهم بعد الممات من آلام مضمنة دائمة ؛ وكان هذا أوضح ما يكون عند النساء اللاتي استبد سلطان الأكليروس بقلوبهن ، وأخرج الشعور بآلام الآخرين صدورهن .

### اتارة الألم والرملع في النفوس

وكم كان مثيرا للرملع منظر الملحد وهو يسام العذاب ، وكم كانت آلام زوجه أو أمه أو ابنته ماثارا لكل إشفاق! إنها ترى من كانت تفديه بحياتها وما ملست ، يتلوى من فرط الألم ، ويرتجف من هول الفرع ، إنها ترقب النار وهي تزحف في بطنها على جسمه ، وتلتهم أعضائه واحدا بعد آخر ، فإذا استوفى أنفاسه وأخفت



الموت صيحة ألمه الممض، واستراح جسمه المعذب، قيل لهذه البائسة: إن هذه هي إرادة الله الذي تعبدن، وأن ليس هذا العذاب إلا صورة باهتة لعذاب سرمدى مقيم ينزله الله بأمثال هذا الملحد! هذه نظرية ترددت فوق المنابر، وحفرت فوق المذابح في الكنائس!..

وقد كان الملحدون في أسبانيا، يقادون إلى محارق النار، وقد غطت أثوابهم صور الشياطين وآلات التعذيب، لكي يذكر النظارة المصير الذي ينتظر كل مارق.

وكان هؤلاء التعساء يحسبون وهما، أنهم إذا اعترفوا بذنوبهم عند الاستشهاد، خلصوا أنفسهم من عناء العذاب، وأنقذوا أطفالهم من المصير الأليم! إذ كان الأبناء - على ما أشرنا - يؤخذون بذنب الآباء، فتصادر أملاك هؤلاء، إذا لم يقرؤا بذنوبهم، ويندموا على ما قدمت أيديهم، ويلجأوا إلى الله تائبين، ومعنى هذا أن العقوبة تمتد حتى تصيب الورثة!.. وهو لون من الإجحاف برره البعض ببشاعة الجرم الذي أدين به الملحدون! فقد اقتضت عدالة الله حين حوسب آدم على ذنبه أن يطرد مع ذريته!.. ومن ثم كان أطفال الملحد يتركون للفقر المدقع والعوز المطلق، وعليهم سمات تسكفت إبان القرن الخامس عشر والسادس عشر، بأن تحرمهم من كل رحمة، وتسد أمامهم كل باب للأمل، وتطفيء في وجوههم كل بريق للأحسان!.. تشرذ ذرية الملحد وتترك للجوع أو لحياة الدعارة!.. وكان هذا من غير شك أمض الآلام التي عاناها هؤلاء الشهداء، فكان الأمل في النجاة من هذا الشر

المستطير ، أكبر البواعث إغراماً بالارتداد والاستجابة لتعاليم الكنيسة .  
وقد اعتمد إنوسنت الثالث مصادرة أملاك الملحد ، بحجة أن الشريعة  
الإلهية كثيراً ما تحاسب الأطفال على خطايا آبائهم ! وأيد الاسكندر الرابع  
هذا الزعم ! ومع هذا فقد كان من حق الأبناء أن يحتفظوا بميراثهم ، متى خانوا  
عهد آبائهم وأفسحوا أسرارهم ، وهدوا رجال التحقيق إلى أمرهم ..!  
وقد جرت العادة مع رجال محكمة التفتيش ، أن يعلنوا قبل أن يباثروا  
مهمتهم في منطقة ما ، غفران الذنوب لكل من أقر بذنبه ، وعدل عن إلحاده في  
ظرف ثلاثين أو أربعين يوماً ؛ وعندما أنشئ أول ديوان للتحقيق في بلاد  
الأندلس ، أدى هذا الإعلان - فيما يقال - إلى أن يعدل عن الإلحاد سبعة  
عشر الفا

#### امضاء ضوايا محكمة التفتيش

غرقت أوروبا في بحر من الدماء ، على يد محكمة التفتيش ، وبفضل ضغط  
الرأى العام الذى كان يهيم من الأكليروس على توجيهه ، وقد بزت الكنيسة  
الرومانية غيرها في أنحاء أوروبا في إهراق الدم البريء ، وإن لم يكن من الميسور  
تكوين فكرة صحيحة دقيقة عن عدد الشهداء الذين راحوا ضحية عسفها  
واضطهادها ، وليس من اليسير أن نتصور مدى العذاب الذى عانوه ، وحسبنا  
أن نسوق بعض الأرقام للدلالة على روعة هذا الاضطهاد الدامى ، معتمدين  
على المؤرخ لورنتى Llorente الذى أتبع له البحث بمطلق الحرية في « أرشيفات



### محكمة التفتيش في أسبانيا

يقول لورتى إن المحكمة وحدها قد قدمت إلى النار أكثر من واحد وثلاثين ألف نفس ، وأصلت أكثر من مائتين وتسعين ألفا عقوبات أخرى تلى الإعدام في صرامتها ، وهذا الرقم لا يشمل الذين أودت بحياتهم فروع هذه المحكمة - الأسبانية - في مكسيكو وليما Lima - بأمرىكا الجنوبية - وقرطاجنه وجزر الهند الغربية وصقلية وسردينيا ، وأوران ومالطة . . . ! وقد كان لورتى نفسه ، سكرتيرا لديوان التحقيق ، وكانت لديه عند احتلال فرنسا ، جميع الأوراق السرية في هذا الديوان ، ويقول « ليكى ، معقبا على هذه الإحصائية إن القارىء يسره من غير شك ، أن يكون لورتى قد بالغ في أرقامه ، وقد كشف پرسكوت Prescott هذا الغلو في حالة أو حالتين ، يقول ماريانا Mariana إن أكثر من ألفى نسمة قد لاقو حتفهم حرقا على يد محكمة التفتيش في عهد توركويمادا وحده ! ويقول مؤرخ قديم - هو برنالتر Bernaldez - إن سبعائة فرد قد أحرقوا في اشبيلية بين عام ١٤٨٢ - ٨٩ ، وأن باب محكمة التفتيش في هذه المدينة قد وجد في عام ١٥٢٤ وقد كتب عليه إن ألفا من اليهود قد التهمتهم النار منذ تقرر طردهم في عام ١٤٩٢ . ! وقد حدد بعض المؤرخين عدد الذين أعدموا في عهد تشارلس الخامس في الأراضى الواطئة وحدها بخمسة آلاف نسمة ، بل ارتفع غير هؤلاء بهذا الرقم إلى مائة ألف . . ! وقد لاقى حتفه نصف هذا عدد - على أقل تقدير - في عهد ابنه ! ففى السادس عشر من شهر فبراير من عام ١٥٦٨ أصدر الديوان المقدس قراراً بإدانة جميع سكان الأراضى الواطئة

والحكم عليهم بالإعدام متهمين بالهرطقة . . ! واستثنى من هذا القرار بضعة أفراد نص القرار على أسمائهم ! وبعد عشرة أيام أعلن الملك صحة هذا القرار وأمر بتنفيذه في الحال ؛ فتقدم إلى المقصلة ملايين من الرجال والنساء والأطفال فيما يروى ليكي . وهذا كله بالإضافة إلى الذين راحوا ضحية الاضطهاد الآثم منذ أيام شارلمان ، حتى أيام أحرار الفكر في القرن السابع عشر . . !

واقدم لبثت محاكم التفتيش قائمة في العالم الكاثوليكي حتى القرن الثامن عشر ، بل ظلت قائمة في أسبانيا شطرا من القرن الغابر ، بل إن إلغاءها لم يقض على التعصب الذي كان قد أدى إلى وجودها ، إذ ظل قائما في الصدور بعد إلغائها ، ولم يتحرر العالم من عبده الظلوم ، إلا بعد معارك آثار عيرها الأحرار على ما سنعرف بعد حين .

#### بين اضطهاد الحقيقة : العالمية والعبودية الربانية

وإذا كان الاضطهاد قد أخفق في مجال الحقيقة التي تكشف عنها البحث العلمي أو النظر الفلسفي - على ما عرفنا في كتابنا عن النزاع بين الدين والفلسفة - فقد نجح في مجال الاعتقاد الديني ، فأخفت كل صوت ارتفع بالمقاومة ، وأثارت القسوة والصرامة فزع الناس وملأت قلوبهم هلعاً ، فارتد أصلب الناس قناة ، أو تفتانوا في سبيل عقائدهم وراحوا شهداء ، أو ولوا الأدبار ولم يتمكنوا الاضطهاد من أن يناههم بسوء - وكل هذه الحالات انتصار للاضطهاد ، إذ لا تجيء الأجيال الجديدة في البلد الذي يزاول مثل هذا الاضطهاد المرير الدامي ، إلا وقد حقق الاضطهاد الآثم غايته ، وأقر في قلوب الناس الدين المنشود .



## تدرج الكنييسة من الرصمة الى التسيكل

أشرنا من قبل إلى أن إهراق الدماء كان موضع نفور ملحوظ من آباء الكنييسة الأولين ، وأنهم كثيرا ما ناهضوا النزوع إلى إعدام الملحدين ، وصبوا لعناتهم على من زاوله في نفس الوقت الذي جدوا فيه صادقين في مقاومة الإلحاد في كل صورته ، ولكن هذا الشعور الكريم قد تلاشى في أواخر العصر الوسيط ، ولم يبق من آثاره إلا احتيال الكنييسة على إبداء هذا النفور . عندما تكل إلى السلطة المدنية تنفيذ أوامرها ، وتلتبس الترفق في معاملة الملحدين ، وهي تعلم أن هؤلاء الحكام المدنيين لا يملكون إلا المبادرة إلى تنفيذ هذه الأحكام الصارمة الآثمة ، فإن أبطالاً في ذلك أكثر من ستة أيام ، عرضوا أنفسهم لقرار الحرمان (١) .

(١) نوع من العقوبة أخذها المسيحيون عن قدماء الوثنيين ، وفي العهد الذي كان للبابا الحق في ترويج الإباطرة ، كان الحرمان يسلبهم تيجانهم وعروشهم ، وقد استعمل البابا لهذا الحرم بعد القرن السادس عشر ، وقد حرم البابا بيوس الخامس ملكة الانجليز إليزابيث عام ١٥٧٠ وأباح لها عاها عسايتها ، وحرم البابا بيوس التاسع في النصف الأخير من القرن الثامن عشر ملك إيطاليا فيكتور عمانويل لاستيلائه على أملاك الكرسي الرسولي ، أما حرمان غير الملوك والإباطرة فكان على نوعين ، حرمان المحروم من بعض الزايات الكنسية - متى كانت جرمه بسيطا ، فإن كان الجرم كبيرا ، وطرد المحروم من عضوية الكنييسة - إن كان عضوا بها ، وحرمان من معاشره المسيحيين ، ودفن على غير الشعائر المسيحية ، وقد أسست القوانين المدنية عقوبة الحرمان الكنسي ، فسلبت المحروم حقوقه المدنية في وظائف الدولة وصارت أملاكه ، وحرمته من الرتب ونحوها . وقد يصدر البابا قرار الحرمان ضد أمة كاملة ، وعندئذ تطلق كنيستها ويمنع الزواج بين أهلها ، ولا تبارك الكنييسة دفن موتاهم ... الخ ولا يزال التساريخ يذكر اذلال كانوسا في القرن الحادي عشر ، شاهدا على روعة الحرمان للخارجيين على طاعة البابا .

وفي الحق إن الإنسان ليعجب من هذا التطور الذي أدرك رجال المسيحية،  
كان الوثني يقول عنهم في القرن الأول : أنظروا كيف يحب المسيحيون بعضهم  
بعضاً ، فما انقضت بضعة قرون حتى كان يقول : هل عرفت الدنيا وحوشا  
ك هؤلاء الذين يفترسون كل من خالفهم ديناً !..

ولعل مما يثير في النفس الألم الممض ، أن يكون شهداء هذه الاضطهادات  
الآثمة في العادة رجالاً لم تبرأ ساحتهم من أدران الاتهام الموجه إليهم فحسب ،  
بل برهنوا باستشهادهم في سبيل مبدئهم على أنهم خليقون بكل إعجاب ، ومن  
طريف المفارقات ، أن ترتكب هذه الجرائم باسم الدين الذي نزل مبشراً بالحب  
والحلم والعفو والتسامح . .

خضبت الكنيسة تاريخها بدم الشهداء ممن أسلفنا ذكرهم ، ولكن الفكرة  
المجرمة التي أودت بحياة الألوف من الشهداء فرادا ، قد أوحى بخوض غمار  
سلسلة من المذابح والحروب الدينية أدت إليها حركة الإصلاح الديني ،  
وانتصار بعض الحكام لنزوع أهلها إلى بعث الدين الصحيح ومقاومة مفسد  
الكنيسة ؛ وما من شك في أن استيفاء البحث في موضوعنا ، يقتضى الحديث  
عن اضطهاد الكنيسة لاتباع هذه الحركة .



## اضطهاد البروتستانت

تهجم المصلحين على الكنيسة ، بواعث اشتداد النزاع بين المعسكرين - الحروب الدينية في المسيحية : بدء النزاع بين البابوية والبروتستانت - الحروب الدينية التي أثارها فيليب الثاني مذبحة سان بارتلميو - فرنسا بعد المذبحة - البروتستانت بين التسامح والاضطهاد - النزاع في إنجلترا منذ قيام الإصلاح الديني - تأمر الكاثوليك على نصف البرلمان - اضطهاد الكاثوليك حرب الثلاثين عاما - مبررات اضطهاد البروتستانت - حقيقة البروتستانت والاضطهاد - موقف المسيحية السجاء من هذا الاضطهاد .

### تهجم المصلحين على الكنيسة :

اجتاحت القبائل المتبربرة الدولة الرومانية في عام ٤٧٦م، ولكنها استكانت لسلطان الكنيسة الروحي ، واعتنق الكثيرون من أفرادها الديانة المسيحية ، وسرعان ما تهايا للبابا سلطان أخذ يتزايد حتى طمس نفوذ الملوك والاباطرة ومن إليهم من الحكام ، وهيمنت الكنيسة على أوروبا دينيا وعليا، إلى جانب ما تهايا لها من نفوذ سياسي؛ فلما استيقظ العقل الأوربي في عصر النهضة، واحتل مكان الوحي الديني الذي خفت صوته في آذان الناس ، اجتاحت الكنيسة ومعتقداتها حملة عنيفة من النقد العقلي الهدام ، إذ أثار رواد الفكر الحديث مشكلة التسامح الديني في كل صورته ، وارتدوا إلى النصوص المقدسة وجدوا في تفهمها ومعرفة أسرارها ، واستنفدوا الوسع في الكشف عن سوءات الكنيسة وزيف تعاليمها وفساد رجالها ، وانتصر الكثيرون من الأمراء لهذه الحركة عسى أن تقوض سلطان الكنيسة وتقيم طغيان رجالها الذين جاروا على نفوذهم ، واغتصبوا

الكثير من حقوقهم .

اتجهت الحركة الجديدة إلى إرجاع الدين إلى الكتب المقدسة ، ورفض التسليم باحتكار الكنيسة لتفسير نصوصها، وتمكين العامة من الإطلاع عليها ومحاولة تفهيمها وسلب الكنيسة حقها المزعوم بصدد غفران الذنوب ، والاتجار بصكوك الغفران وثواب الآخرة وسعادتها، واتجه المصاحون إلى نقد الطقوس الدينية والاعتراف وعبادة القديسين وغير هذا مما هو معروف عن حركة الإصلاح الديني في عصر النهضة . وكان من أعلام هذه الحركة مارتن لوثر + ١٥٤٦ في ألمانيا، وزونجلي + ١٥٣١ وكلفن + ١٥٦٤ في سويسرا وغيرهم من رواد الإصلاح الديني إبان هذه الفترة . (١)

وليس يعزينا في هذا الكتاب أن نعرض لتفصيل موقفهم وبيان وجهات نظرهم ، وحسبنا من تاريخهم أن نلم بوجوده المتاعب التي أنزلتها الكنيسة الكاثوليكية بهم ، ونعرف مدى الاضطهاد الذي عانوه ، ومبلغ النجاح الذي صادفوه ، وأظهر الحروب التي ثارت من جراء تعاليمهم ، ثم نعقب على هذا ببيان اضطهادهم لخصومهم الذين تمردوا على طاعتهم أو تصدوا لمقاومة تعاليمهم بعد

(١) سبقت هذه الحركة ، حركة أخرى في القرن الرابع عشر ، أدى إليها ضعف البابوية واضمحلال نفوذها ، فظهر ويكلف Wycliffe وطالب بإصلاح الكنيسة وتهجم على البابوية وفساد تعاليمها . وتأثر بأرائه جون هوس John Huss . وأخذ يبشر بتعاليمه في بوهيميا ويدعو إلى البابوات الذين فسد سلوكهم وساءت تصرفاتهم ، فاعتقد مجلس كنستانس عام ١٤١٤ بعد أن اتى هوس المدبول عن آرائه ، وقررا دأته بحجة أن تعاليمه لا تتفق مع تعاليم الكتاب المقدس ثم سلمه إلى السلطة المدنية فتوات احراقه في عام ١٤١٥ وتابع مريدوه نشر مذهبه.



أن واتهم السلطة وأصبحوا قادرين على التنكيل بمن لا يذعن لأرائهم، فنقف بهذا على وجوه الاضطهاد في معسكرات الكاثوليك والبروتستانت على السواء:

### بواعث اشتداد النزاع بين المعسكرين :-

كان الطبيعي أن تتميز الكنيسة غضبا لكل حركة ترمى إلى تقويض سلطانها وتهدف إلى تزييف رجالها، ولم يكن من الميسور لرواد الإصلاح الديني وقد آمنوا بفساد الكنيسة أن يتخاذلوا وينكصوا على أعقابهم متى نهضت الكنيسة لمقاومتهم، ومن هنا كان الصراع الدامي الذي تجاوز نطاق الأفراد إلى معسكر الحكومات، وحمل الشعوب على أن تكابد متاعب الحروب الدينية أعواما طويلا؛ بل أكثر من قرنين من الزمان، اضطرت فيها نيران الحروب في أوروبا طويلا وعرضا. وحين نهض بالإصلاح الديني رواده كان الناس يدينون بدين ملوكهم وحكامهم ولم تكن حرية الفرد في اعتناق الدين الذي يراه قد عرفت بعد؛ ومن هنا كان حرص رجال الدين من البروتستانت والكاثوليك؛ على أن يكون حكام البلاد على دينهم؛ وكان التوصل إلى هذا كثيرا ما يقتضى خوض غمار حروب طاحنة ومذابح مروعة؛ سنعرف أمرها بعد قليل.

وقد أحسن رواد الإصلاح الديني قيادة الجماهير، ونجحوا في إثارة عواطفهم وإقناعهم بفساد الكنيسة وضرورة إصلاحها؛ ووقفوا في إثارة اهتمامهم برد الدين إلى أصوله وسرعان ما تحولت هذه البواعث العقلية إلى فيض من

التعصب والحقد، فاضطرم الثائرون حماسة لنصرة مذهبهم الجديد - بالغاً ما بلغت تضحياتهم في سبيل ذلك ، وإذا هاجت العواطف في نفوس المؤمنين فليس لقردهم على الأوضاع الفاسدة حد ينتهي عنده ، ولا لطغيانهم على خصومهم نهاية يقف عند بلوغها ، ومن هنا كانت حماسة الثائرين في الدفاع عن مذهبهم ، وتماسكهم في احتمال العذاب من أجله ، وهي فورة أيديتها العدوى النفسية التي كانت تسرى بين الناس في سرعة البرق الخاطف ، وزكاهها الاضطهاد الذي كان الإيمعان فيه يقوى المذهب الجديد ويزيد من شهدائه ! ومتى اجتمع المتمردون بعضهم ببعض اعترتهم الحماسة وازدادت وقدة واشتعالاً ، وسرعان ما يتغير سلوكهم حتى تتحول رقة الوديع المسالم ، صراحة تحمل صاحبها على جناح العنف البالغ إلى التنكيل بخصومه والسير على جثتهم في غير تردد أو إشفاق ! وهذا ما ستراه عند استعراض هذه المرحلة من النزاع :

### الحروب الدينية في المسيحية (١)

برء النزاع بين البابوية والبروتستانت

عند ما أعلن لوثر على باب الكنيسة في ألمانيا بطلان الصكوك التي كانت تباعها الكنيسة للناس ، لتغفر لهم ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر ، أشار البابا على رجاله بأن يردوه عن غيه وزيغه بالحجة المقنعة ، فلم يزدده جدهم إلا

(١) استقيننا من الأستاذين رفعت وحسونة في « معالم تاريخ أوروبا في العصر الحديث » بعض معلوماتنا عن وقائع هذه الحروب ، وأضفنا إليها ما آثرنا إضافته من غيره من المصادر .



إصرارا ، وامتدت ثورته إلى البابوية نفسها فأعلن أنها بدعة  
خلا منها عهد الرسل الأولين . . . وطالب بإخضاع الكنيسة للسلطات  
الديوية . . . فبادر البابا بإصدار قرار الحرمان ضده ، ولكن لوثر أحرق  
القرار على ملأ من الناس ! وأعلن بجمع ورمس أنه طربد القانون وأباح  
إهدار دمه ، وحذر المؤمنين من قراءة كتاباته . . . !

وتوارى لوثر محتبنا مدة عامين نقل فيها الإنجيل إلى الألمانية، وفشت  
دعوته وصادفت هوى عند الكثيرين في مختلف الطبقات ، وأفضت بالفلاحين  
إلى ثورة دامية أثارته قلق لوثر ، لأنها أغضبت الأمراء الذين كانوا يناصرونه  
فوق أنه كان يضيق بإهراق الدماء من أجل دعوته . ولبت الجدل قائما بين  
الكنيسة والبروتستانت حتى انتهى بحروب طاحنة توجهها صلح أجزبرج عام  
١٥٥٥ م ، هدأت الحال بعده نيفا وستين سنة ، تلتها حرب الثلاثين عاما .

وبعينا من هذا الصلح إقراره حق كل أمير في اختيار المذهب الذي  
يدين به أتباعه ، فن أبي من رعاياه الإذعان لمذهبه جاز له أن يهاجر  
إلى حيث يشاء .

ومثل هذه الحروب الدينية وقعت في سويسره ، حين نهض بطلب  
الإصلاح زونجلي ، وانتهت بما يشبه ما انتهت إليه في المانيا .

الحروب الدينية التي أثارها فيليب الثاني :

وفي أسبانيا كان فيليب الثاني + ١٥٩٨ من غلاة المتعصبين للكنيسة

الكاثوليكية ، فاستعان بمحاكم التفتيش وأطلقها في الناس تأخذهم بالشبهات وتصليهم نارها في غير رفق ولا رحمة ، واستنفد كل جهوده وموارد دولته في استئصال البروتستانتية من العالم الأوربي ، فكان قتاله للهولنديين والإنجليز والهوجونوت في فرنسا :

فأما عن هولنده ، فقد ضاق الشعب بمحاكم التفتيش التي تولته بعذابها وطالب بإلغائها ، وأعلن ثورته واجتاح بعض الكنائس وحطم ماضمت من صور وتمائيل ، فأرسل فيليب جيشه على ماهو معروف ، ولكن الثورة لبثت قائمة حتى انتهت بإلغاء محاكم التفتيش

فأما كفاحه مع الإنجليز ، فرده الى أن البابا أصدر قرار الحرمان ضد ملكتهم البروتستانية « أليصابات » ، عام ١٦٧٠ ، وأباح لرعاياها حق التمرد على طاعتها ، وراح أعضاء جمعية اليسوعيين يقتحمون إنجلترا ويكيدون لها ، فرأت التخلص من وريثة عرشها الكاثوليكية « ماريه ستورت » وكانت هذه موضع سخط من الرأي العام البروتستانتى يزكى سخطه عليها اشتراكها في مؤامرات ترمى إلى اغتيال اليبصابات ، فأصدر البرلمان قراراً بإعدام كل من يأتمر بحياة ملكته ، أو تدبر المؤامرات من أجله - ثم دبرت أليصابات مع أعوانها مؤامرة ملفقة مزورة ، وانتدبت لجنة لمحاكمة ماريه ستورت من أجل ذلك ، وقررت إعدامها استناداً الى أدلة زائفة باطلة . . .

وعندئذ تحرك فيليب بأسطوله الضخم - الإرمادا - لملاقاة الانجليز ، فلما اندحر أسطوله وانتصرت البروتستانتية ، تزعمت إنجلترا العالم البروتستانتى كله .



فأما فرنسا فقد فشلت البروتستانتية بين شعبها، وتأثر الكثيرون بمذهب كلفن وسموا بالهوجونوت Huguenots ونهض الكاثوليك بتكوين العصابة المقدسة، لمناهضة البروتستانتية، ولبت يشد أزرها في جهادها وحروبها حتى صرفته هزائمه عن تقديم العون لها ..

كانت هذه هي مهمة فيليب الثاني في انتصاره للكاثوليكية وتأييده للكنيسة، ومقاومته للبروتستانتية في مختلف بقاع الأرض، وقد قضى نجبه بعد أن لطحه الدم نابا ومخلبا .. فلنعد إلى تفصيل ما يعنيننا مما أسلفنا الإشارة إليه :

#### مذبحة سان بارتلميو في فرنسا

ظهرت حركة الإصلاح الديني في فرنسا في مطلع القرن السادس عشر، وسرعان ما فشلت البروتستانتية واعتنقها أتباع كلفن ممن سمو بالهوجونوت فيما بعد، كما أشرنا منذ حين، فاعتزم هنري الثاني أن يستأصل من فرنسا شأفتهم، وتولاهم باضطهاد دام زادهم إيمانا بمذهبهم واستبسالا في الدفاع عنه وحماسة في التبشير به؛ واتصلت جماعتهم بالسياسة تعين من ناصرهم من رجالها، وتستعين بهم على التمسكين لمذهبها .. وإلى مثل هذا اتجه الكاثوليك، وقام نزاع انتهى بموجة من الفتن والحروب والمذابح، لطح بالدم تاريخ فرنسا لإبان هذا العصر .

وأراد تشارلس التاسع + ١٥٧٤ أن ينشر الأمن في ربوع البلاد فهادن الهوجونوت، وأدنى زعماءهم من حضرته، وتوج هذه الحركة بالرغبة في تزويج

أخته من زعيم لهم ، فأثار هذا المسلك ثائرة الكاثوليك .

وفي ليلة الزفاف أقبلت جموع الهوجونوت تترى إلى باريس ، فأطلق الرصاص على زعيمهم ، وعندئذ وطن عزمه على التنكيل بمن حاول اغتياله ، وخشى الكاثوليك مغبة ذلك ، فعقدوا النية على أن يجعلوا عيد القديس بارتليبو ( ٢٤ أغسطس من عام ١٥٧٢ م ) مذبحة يبدون فيها خصومهم . وفي منتصف الليل دق ناقوس كنيسة « سان جرمان » مؤذنا ببدء المذبحة ، فاذا بأشراف الكاثوليك والحرس الملكي وجموع الجماهير تنقض على بيوت الهوجونوت والفنادق التي أوتهم ، وتأتي على من بها ذبحا ؛ فلما أصبح الصباح كانت شوارع باريس تجري بدماء ألفين من النفوس !.. وتطارت أبناء المذبحة المروعة إلى الأقاليم فاذا بها تستجيل بدورها مجزرة تجري بدماء ثمانية آلاف من هؤلاء المساكين ؛ بل قيل إن هذه المذبحة قد أودت بحياة نيف وعشرين ألفا .. !

#### فرنسا بعد المذبحة

وقد أثار وقوع هذه المذبحة الغبطة والرضا في أوروبا الكاثوليكية كلها ، فكاد فيليب الثاني يحن من فرط الفرح عند ما بلغته أنباؤها ، وانهاالت التهاني على تشارلس التاسع بغير حساب ؛ وكاد البابا جريجوري الثالث عشر يطير فرحا ، حتى أمر بأن تسك أوسمة لتخليد ذكراها ، وتوزع على وجوه الشعب وعيونه . . .



وقد رسمت على هذه الأوسمة صورته ، وإلى جانبه ملك يضرب بسيفه أعناق الملحدين ، وكتب على الأوسمة « إعدام الملحدين » وأمر البابا - مع هذا - بإطلاق المدافع وإقامة القداس في شتى الكنائس ، ودعى الفنانين إلى تصوير مناظرها على حوائط الفاتيكان ، وأرسل تهنئته إلى تشارلس

### البروتستانت بين التسامح والاضطهاد

ولكن هذه المذبحة المروعة لم تضعف من شأن البروتستانت ولم توهم من خطرهم ، بل لعلها زادت وقدة العداوة في نفوسهم ، وكان هذا ينذر فرنسا بشر مستطير ، فحاول هنرى الثالث + ١٥٨٩ أن يستميلهم بمرسوم منحهم فيه حرية العبادة وثمانية أماكن حصينة ، وبعض حقوق أثارت خصومهم ، فضاعفوا مسعاهم حتى نجحوا في جملة على إلغاء هذا المرسوم . .

واستمرت المنازعات الدامية تطحن القريتين حتى أباد كل فريق الكثير من شيوخ خصومه ونسائهم وأطفالهم ، ودمرت بعض الكنائس والقبور والهياكل ، وتفككت فرنسا وأضحت جمهوريات صغيرة خربة تضم الكثير من الكنائس المتداعية والقبور المهدامة . . !

ولبت النزاع قائما يزداد وقدة واشتعالا ، حتى إذا كان عام ١٥٨٤ كان وارث العرش الفرنسى بروتستانتيا كلفنيا ، هو هنرى الرابع فيما سمي بعد ، وكانت العصبة المقدسة قد نشأت كما أشرنا منذ حين ، لاستئصال البروتستانتية من فرنسا ، ونشبت المعارك الطاحنة بين البروتستانت والكاثوليك ، وعلت

صيحة الأحرار من المفكرين والشكاك ، كما سنعرف عند الحديث عن النساح الديني في فرنسا ، فتحول هنري الرابع عن البروتستانتية وأصدر مرسوم « نانت » عام ١٥٩٨ م ، وفيه أباح للبروتستانت حرية العبادة في كل البلاد الفرنسية مع استثناء باريس وبعض الأقاليم ، وقرر مساواتهم بالكاثوليك أمام القانون ، وحرّم عليهم سكنى باريس وبعض المدن والمقاطعات ، وأباح لهم تكوين محاكم تشكل منهم ومن الكاثوليك للفصل في قضاياهم ، وصرح لهم بعقد الاجتماعات الدينية والسياسية ، وقد ظلوا قوة حربية لها خطرها في الحروب حتى جاء ريشليو ونزع إلى تقوية الملكية وإضعاف كل قوة تقف إلى جانبها ، ومن هنا كان اضطهاده للبروتستانت في فرنسا ، رغم أنه كان يحسن معاملتهم في غيرها من البلاد ، فحاصر « لاروشيل » وقتل منها ألفاً وخمسمائة بروتستانت.

وفي عهد لويس الرابع عشر + ١٧١٥ بلغ عدد البروتستانت في فرنسا مليوناً ومائتي ألف نفس ، لهم ستمائة كنيسة يتبعها سبعة مائة قسيس ، وقد أهلك منهم لويس الكثيرين بعد اقتراحه بمرية أولاده الكاثوليك المتعصب ، ثم ألغى مرسوم « نانت » السالف الذكر ١٦٧٦ وسلبهم امتيازاتهم المشار إليها من قبل ، وخيرهم بين الهجرة أو الارتداد عن البروتستانتية ، فجلى عن فرنسا أربع مائة ألف أصاخوا إلى نداء ضميرهم ، ولاذوا بهولنده وانجلترا وبروسيا وأمريكا . .

ومع كل هذا لم يستطع أن يستأصل الإلحاد من بلاده ، إذ أصبح الهوجونوت



بعد إلغاء المرسوم السالف طريدى القانون مدة قرن كامل ، وكان رجال الدين في فرنسا يبررون سياسة العسف في اضطهاد هؤلاء البروتستانت بالآية الانجيلية المشار إليها من قبل ، مع الاستعانة بحجج القديس أوغسطين في تبرير اضطهاد المارقين الملاحدين .

وفي عهد لويس الخامس عشر خفت حدة اضطهاد الهوجونوت ، ولكنهم كانوا معتبرين خارج القانون وبممنوعين من الزواج بالكاثوليك ، حتى صدر قانون التسامح عام ١٨٨٧ ورفع عنهم الاضطهاد وإن كان قد حرمهم من مزاوله بعض المهن ؛ وسنعود الى الحديث عن هذا القانون عند الكلام على فولتير وغيره من دعاة التسامح الدينى .

### النزاع فى انجلترا منذ قيام الاصلاح الدينى

وظهرت حركة الإصلاح الدينى فى انجلترا فى مطلع القرن السادس عشر كذلك ، لبثت الكاثوليكية والبروتستانتية فى كفاح متصل ، وكلها اعتلى العرش ملك فرض مذهبه على شعبه ، وسام خصومه العذاب ألوانا ؛ وكابد البروتستانت والكاثوليك من جراء هذا الاضطهاد وبلا كثيرا ، حتى انتهى أمر هذه القلاقل المتلاحقة ، بانتصار البروتستانتية فى عهد أليصابات ، وتزعم انجلترا للعالم البروتستانتى على ما أشرنا من قبل ولكن النزاع قد تجدد حين اعتلى العرش جيمس الأول + ١٦٢٥ واتصر للكنيسة الأسقفية ، فضايق به الكاثوليك من جديد ، فدبروا مؤامرة البارود التى أريد بهانسف البرلمان

الإنجليزى أثناء افتتاحه :

تأمّر الكاثوليك على نصف البرلمان

وتتلخص المؤامرة في أنهم استأجروا دارا مجاورة للبرلمان ، ووضعوا البارود في مخزن كان يقع تحت قاعة اللوردات مباشرة ، وكان المقدر أن يتصل بالبارود شريط من النار يحترق بعد ربع ساعة من إشعاله ، واقترح بعضهم إبلاغ الكاثوليك من أعضاء المجلس نبأ المؤامرة حتى يتخلفوا عن حضور الاجتماع وأبى بعضهم ذلك ، وأدى الخلاف إلى انسحاب البعض واتصلت أنباء المؤامرة بالملك ، وسرعان ماقتشت المحال المجاورة لدار البرلمان ، وفشلت المسكيدة كلها قبل البدء بتنفيذها ، وأعدم مدبروها بعد عذاب مرير  
جسيم . .

اضطهاد الكاثوليك

وطارد الملك البيوريتان ( غلاة المتطرفين من البروتستانت ) وجرى على سياسة تشارلس الأول + ١٦٤٩ ، الذى وقعت فى عهده الحرب الأهلية (التي انتهت بانتصار البيوريتان على كرمويل) وإعدام الملك وتأييد المذهب البيوريتانى بعد نشأة حزبي التورى والهويجس اللذين ناهضا الكاثوليكية .  
وفى عهد تشارلس الثانى + ١٦٨٥ ضاق أحد قساوسة الكاثوليك بالكنيسة الكاثوليكية ، ونزع إلى إقرار الكثلركة فى انجلترا وتولية اليسوعيين أمرها ،



وقيل إن اليسوعيين قد دبروا مؤامرة أرادوا بها إحراق لندن وذبح خصومهم من البروتستانت ، واغتيال الملك الموالي للكنيسة الأسقفية ، فقبضت السلطات على القس السالف الذكر مع بعض من اشتهروا بالتعصب من الكاثوليك ، وقدموا إلى المحاكمة جميعا ، ولكن القاضي اختفى أثناء المحاكمة ، ثم عثر على جثته بعد ذلك ، فنجم عن هذا اضطها الكاثوليك في عام ١٦٧٨ ، وهو اضطهاد لا ينفي ما عرف عن هذا العصر من نزوع إلى التسامح .

### حرب الثلاثين عاما:

وفي خلال القرنين الماضيين اللذين ألمنا فيهما بآثار الاضطهاد الديني من خلال الحروب الدامية التي استغرقت أوروبا وقعت حرب الثلاثين عاما (١٦١٨ - ١٦٤٨ م) ، أدى إليها النزاع الديني في ألمانيا أول الأمر وفي غيرها من دول أوروبا بعد ذلك ، وانتهت ببواغث سياسية جعلت فرنسا الكاثوليكية تحارب في صفوف البروتستانت ، وفي خلال هذه الحرب عانى البروتستانت العذاب ألوانا وكابد الكاثوليك من أمر الاضطهاد أشكالا ، حتى انتهت الحرب بإعطاء كل أمير الحق في اختيار الدين الذي يرى فرضه على رعاياه ! وتم الاعتراف رسميا بالمذهب الكاثوليكي واللوثري والإصلاحى (مذهب كلفن وزونجلي) واستبعد ما عداه من مذاهب ، وتلاشت من العالم فكرة الحروب الدينية بعد ذلك ...

### مبررات اضطهاد البروتستانت

هذه هي مظاهر الاضطهاد الذين لقيته البروتستانتية بمختلف شعبها إبان

القرن السادس عشر والسابع عشر ، وهي ظاهرة طبيعية تلائم روح العصر الذي وقعت فيه ، وهو عصر ضاق فيه رجال الكنيسة الكاثوليكية بتمرد رواد الإصلاح الديني على سلطانهم ، واستخفافهم بكل ما كان موضع حرمة وقداسة عند رجال الكهنوت ، وكان هذا في نفس الوقت الذي دببت فيه اليقظة في أوروبا وتفتحت فيه أذهان الناس في شتى ميادين الحياة ، وكان الارتداد إلى الدين - كما يبدو في نصوصه المقدسة - مظهرا من مظاهر النضج العقلي الذي يميز هذا العصر ، لم يكن بد من أن يحدث الجدل بين هذين المعسكرين ، وأن تشتد وطأته حتى يستحيل إلى معارك دامية يستشهد فيها الكثيرون ، وحروب طاحنة تنهك الأمم والشعوب ، ولم يكن ثمة مفر من وقوع ذلك في عصر يضطرم تعصبا وتدين الشعوب فيه بدين حكامها .

### مذبحة البروتستانت والاضطهاد

على أن هؤلاء البروتستانت الذين انشغلوا عن الكنيسة الكاثوليكية وأبو أن يذعنوا لطغيانها أو يصبروا على فسادها، ونزعوا إلى مقاومة رجالها والكشف عن فساد سلوكهم ، وطالبوا بحق الإنسان في الحكم الفردي والاطلاع على الكتب المقدسة وتفسير نصوصها . . . أولئك الأحرار ظاهرا كانوا في الحقيقة جنودا للاضطهاد . . . ! اعتصموا بالتزمت والتعصب ، وسلطوا كل قواهم للتشكيل بخصومهم ! كانوا يهاجمون الاضطهاد يوم أن كانوا في حاجة إلى النساج ، فلما استقرت قدمهم وتمكن نفوذهم ، استبدوا بخصومهم وساءوهم العذاب أو انا



وبهذا مثلوا نفس الدور الذي مر به خصومهم من الكاثوليك من قبل !

### موقف المسيحية السماوية من هذا الاضطهاد

ومن طريف المفارقات - مرة أخرى - أن ترتكب السلطات الدينية وأشياها كل هذه الفظائع الدامية باسم المسيح الذي يقول لمريديه في خطبته على الجبل : طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات . . . طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض ، طوبى للجوع والعطشى إلى البر لأنهم يشبعون . . . طوبى للرحماء لأنهم يرحمون ، طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون . . . قد سمعتم أنه قيل للقديس لا تقتل ، ومن قتل يكون مستوجب الحكم ، وأما أنا فأقول لكم ، إن كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم ، فإن قدمت قربانك إلى المذبح وتذكرت أن لأخيك شيئا عليك فاترك هناك قربانك ، كن مرضيا لخصمك . . . سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا ، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين . سمعتم أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعينكم ، أحسنوا إلى مبغضيك . وصلوا لأجل الذين يسيئون اليك ويطردونك ، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات ، فإنه يشرق شمس على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الأبرار والظالمين ، لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم ، فأى أجر لكم ؟ أليس العشارون أيضا يفعلون ذلك ؟ وإن سلمتم على إخوانكم فقط فأى فضل تصنعون ؟ أليس العشارون أيضا يفعلون

هكذا؟ فكونوا أتم كمالين ، كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل (١) .  
 بهذا الحديث - وتمته في خطبة الجبل - بلغت المسيحية أوج كمالها ، وسمت  
 في مدارج الروحانية إلى أقصى الآماد ، وأحالت كدر الكفاح في الدنيا نورا  
 وصفاء ليس بعده نور وصفاء ، فأين من هذا السمو الروحي البالغ أوجه ،  
 إجرام الكنيسة في اضطهادها المرير الدامي الذي خضبت به تاريخ المسيحية  
 السمحاء . . ١٤ .

ولكن الذين حملوا الأناجيل نصيبتها في تبعة الاضطهاد الديني في المسيحية ،  
 يقولون إن أتباع الاضطهاد من أمثال القديس أو غسطين ، قد استندوا في  
 نزوعهم نحو الاضطهاد ، إلى آيات وردت في الانجيل ، كقول المسيح لحواريه :  
 أجبروهم على اعتناق دينكم *Compelle intrare* - أو ، لا تظنوا أني جئت لألقى  
 سلاما على الأرض ما جئت لألقى سلاما بل سيفا فاني جئت لأفرك الإنسان  
 من أبيه ، والابنة من أمها ، والسكنة من حماتها ، وأعداء الإنسان أهل  
 بيته (٢) ولكن من الإنصاف أن تقول إن الآيات التي أسلفناها في عظة الجبل ،  
 هي رمز المسيحية وطابعها الغلاب .

على أن قصة الاضطهاد لم تكمل فصولها بعد ، لأن رواد الإصلاح الديني  
 قد أبلوا في مجال هذا الاضطهاد أحسن بلاء . فلنشرح موقفهم على قدر ما يسمح  
 المقام :

(١) الاصحاح الخامس في انجيل متى .

(٢) انظر انجيل متى - الاصحاح العاشر ، الآيات ٣٤ - ٣٦ .



## الاضطهاد عند البروتستانت

نصيب العقل في حركة الاصلاح الديني - الاصلاح والمنطق الديني - بواعث الاصلاح الديني - تبعات الكاثوليك والبروتستانت في الدعوة للاضطهاد - دعوة لوثر للاضطهاد - موقف البروتستانت من احراق مرفيتوس - البروتستانتية وحركات التنوير - تعقيب .

### نصيب العقل في حركة الاصلاح الديني

إذا كانت الكاثوليكية قد ناصبت حرية الضمير والفكر العدا، وأصابت أهلها نارها في غير رفق، فقد احتذت البروتستانتية حذوها وإن كانت حاجتها إلى السلاطة الزمنية قد قصت جناحها وعرقلت نشاطها، وقد يبدو هذا مثيراً للدهشة لأن رواد هذه الحركة كانوا يلودون في أول أمرهم بمنطق العقل ويعتصمون بشريعته في مهاجمة خصومهم من رجال الأكليروس، والكشف عن فضائحهم وسوءات تصرفاتهم، وكانوا يهاجمون الاضطهاد ويأبون أن يكونوا للسكنيسة سلطان على ضمائر الناس وقلوبهم، وقد خدعت البعض هذه الظاهرة وأعمتهم عن كنه القوى الخفية التي تسيرهم، وظنوا وهما أن العقل كان رائدهم وأنه الهادي إلى حركتهم، وسار في ركبهم بعض من عرض للبحث في دعوتهم، فقالوا إن ثورتهم حركة تولاهم مفكرون سبقوا زمانهم بما امتازوا به من سداد التفكير ونفاذ النظر، وقد تخلف هذا الظن ولبث قائماً في عقول بعض المتأخرين من الكتاب، فمن ذلك قول لافيس ورامبو

في كتابهما عن « التاريخ العام » ، عندما عرضا لتفسير الإصلاح الديني : إنه نشأ من قراءة الإنجيل ، وأدت اليه « تأملات فردية أورثها قلوب البسطاء عقل جريء » ، ولعل الأصح أن نقول مع بيوري ولوبون ومن إليهما من الباحثين ، إن حركتهم كانت حركة دينية وليست عقلية ، وأنهم كانوا رجال دين عبروا عن روح عصرهم وروح العصر السابق لهم ، ولم يكونوا رجال فكر سبقوا زمانهم ، ومن أجل هذا لازمتهم سوءات الحركات الدينية من تعصب ذميم لكل ما يالفون ، وضيق صدر بكل جديد .

### الاصراع والمنطق الديني

نشأت حركة الإصلاح الديني عن بواعث عقلية ، ولكن الاستدلال المنطقي ليس هو الذي أدى إلى نضجها ، وإنما قامت على عواطف وتدينيات وجرت على منطق ديني مشبع بالمشاعر والعواطف لا تربطه بمنطق العقل صلات ! بل إن عناصر التأمل والتفكير فيه ضئيلة ، ولم يكن هذا الإصلاح في بدايته دعوة إلى حرية التفكير ، بل كان مجرد انتقاد ينصب على تصرفات رجال الدين والتبشير بالتزام العمل بما تقضى به نصوص الإنجيل ، وربط العقل بقيودها ، ومن تتبع هذه الحركة لاحظ أن البلاد التي بسط فيها الإصلاح الديني نفوذه ، قد أخذ فيها الملوك مكان البابوات حقوقا وسلطانا ! وقد أتبع لكلفن أن ينشئ في جنيف حكومة جمع فيها بين السلطتين : الروحية والزمينية ، وسلط قواه على الشعب حتى يدين بما يدين به المصلح .. ! إن فهم



هذه الحركة في ضوء المنطق الديني يتكفل بتفسير الغامض من ظواهرها، والكشف عن سر الاضطهادات التي أنزلها زعمائها بخصوصهم من المتدينيين ورواد العلم والفلسفة، إذ ليس بغريب على من قاده خلق الدين وتسلطت عليه الحماسة الشديدة وكان شأن العقل في تصرفاته ضئيلا، أن يكون على خلق «كلفن» الذي كان لا يتردد قط في إعدام من خالفه في مذهبه، ولا يستحي أن يقول إن الله يريد أن يقصى الإنسان الرحمة الإنسانية بعيدا عن قلبه عندما يعتنق الجهاد في سبيله. ١.

### بواعث الإصلاح الديني

كانت حركة الإصلاح صدى لروح العصر ولم يكن لأهلها سبق عقلي على أهل زمانهم، والذي ساعد عليها هو اندحار قوة البابا في أوروبا ونمو الملكيات القوية التي عملت على فصل الكنائس القومية عن روما، وقد انتصر الإصلاح الديني في ألمانيا الشمالية، لأن الأمراء انتصروا له ليفيدوا من مصادرة أملاك الكنيسة ونحوها. وهذا بالإضافة إلى أن سببه الرئيسي يرجع إلى فساد الكنيسة منذ زمان، واهتمام البابوات بمصلحتهم الدنيوية، وقد كان كل مفكر في أوروبا يشعر منذ القرن الرابع عشر بهذا النقص ويعرف وجه الحاجة إلى إصلاح الكنيسة، فظهور لوثر وأمثاله كان تعبيرا عن روح عصرهم وما سبقه، ولم تكن ثورة عقل متمرد على عقيدة، بل كانت ثورة شعور واسع النطاق يناصب الكشلكة

العداء ، ومن أجل هذا كان من الخطأ أن يقال إنه يمكن لحق الفرد في إصدار الأحكام المستقلة ، وأنه أقر الحرية الدينية ، « فليس من شيء كان أبعد عن عقول قادة الإصلاح الديني من التسامح مع النظريات المخالفة لأرثهم ، وإذا كانوا قد قوضوا سلطان البابا ، فقد أحلوا مكانه سلطة الانجيل ، ولكنه كان الانجيل كما فهمه لوثر أو كما عرفه كلفن ؛ ولم تكن الحروب الدينية التي ثارت ترمى الى اقرار الحرية الدينية ، بل كانت نزاعا بين معتقدات دينية فيما يقول بيوري ولوبون وغيرهما من المفكرين .

#### تبعات الطائويك والبروتستانت في أمر الاضطهاد

ولعل من الإنصاف للسلطات الكاثوليكية أن نقول إنها لم تناقص نفسها بما زاولته من اضطهاد ، لأن من حقها أن تحمي الدين وتذود عن تعاليمه كل عدوان وإن أخطأت سبيل هذا الدفاع ! أما السلطات البروتستانتية فان اضطهادها للعلم ، يتنافى صراحة مع المبادئ التي وضعها أهلها أساسا لحركتهم في الانشقاق عن الكنيسة الكاثوليكية ، كإقرار المبدأ القائل بحق الحكم الفردي لكل إنسان .

ويضاف إلى هذا ثلاثة أمور ينبغي ألا نهملها عند تقدير التبعة التي يحملها كل من الطائفتين ، أولها أن البروتستانت لم يؤتوا من السلطان ما كان للكاثوليك ، وعندما تهيأت لهم هذه السلطة - على يد كلفن ، في جنيف مثلا - لم يكونوا أقل وحشية من الكاثوليك ، وثانيها أن الكاثوليك إذا كانوا قد حرموا دراسة الحقائق التي اهتدى إليها علم الفلك الحديث في أوروبا الكاثوليكية إبان



القرن السابع عشر والثامن عشر ، فإن السلطات البروتستانتية قد أنكرت الحقائق التي كشفها علم طبقات الأرض وعلم الحياة والأثر وبوجيا ، وحظرت الجامعات الأمريكية تدريسها إبان القرن الغابر - فيما يقول هو ايت A. D. White ، ولم يكن البروتستانت أقل تشبثا بالمعنى الحرفي للنصوص المقدسة من الكاثوليك ، وقد بلغ أمر هذا التعصب بكبيرهم « لوثر » أن اعتبر هذه النصوص في معناها الحرفي الظاهر هي المصدر الوحيد للعلوم الطبيعية كلها مع أن العلم الطبيعي كان شعار الفلسفة والتعليم الحديث عامة في عصر لوثر ، ومع هذا رفض التأويلات المجازية والصوفية ، وقرر أن العلوم الطبيعية أداة لخدمة التقوى والصلاح . . . ! وإلى مثل هذا الانحياز ذهب « كلفن » ، فيما يقول الاستاذ هو ايت وغيره من المفكرين .

وثالث الأمور التي ينبغي مراعاتها عند تقدير التبعة التي يحملها الإصلاح اديني في فئات الاضطهاد ، أن الإصلاح قد نهض وانصرف بعد اضمحلال نفوذ الكنيسة الكاثوليكية واندحار السلطان البابوي ، وتيقظ الأمم والشعوب وزوع الناس إلى تحكيم العقل في كل شيء ، فكان الطبيعي أن يكون اضطهاد المصلحين لخصومهم أخف حدة وأقل فظاعة .

### صفاة البروتستانت المضطهدين

أقرت البروتستانتية الاضطهاد مبدءاً مشروعاً لمقاومة الهرطقة وتوكيد الإيمان الصحيح ، وقد أكد لوثر هذا المبدء في خطاب له إلى فيليب أمير هس Philip of Hesse ووضع كلفن وبيزا Beza وجور يور Jurieu كتباً أيديوا فيها مشروعية الاضطهاد ، واستند نو كس Knox باسكتلنده إلى « العهد القديم » -

أى التوراه - وأعلن أن العدالة تقضى بإعدام الذين ثبتت عبادتهم للأوثان ، وأن من تهاون من الحكام والناس في اضطهاد الملحدّين عرض نفسه لغضب الله . وقد أقرت حقّ الحكام المدنيين في معاقبة المارقين ، قوانين الإيمان في سويسرا واسكتلندة وبلجيكا وسكسونيا .

وقد غلبت روح التعصب والاضطهاد أكثر المصالحين ، وعلا صوتها في كل بلد انتصرت فيه حركتهم ، إذا استثنيت زعيمين ضاقا بالاضطهاد ونفرا من الكبح والقمع ، وزعا إلى تأييد التسامح ، هما زونجلى Zwinglius وسوسينوس Socinus .

طاردت البروتستانتية بمختلف شعبها أحرار الفكر ، وتعقبت خصومها ومن خالفهم الرأي ، فسلطت حقدّها في هولندة على ديكرت الذى مكن للوحي الدينى وأقر الإيمان أساسا لكل فلسفة يقينية ! وحظرت في البلاد التي انتصرت فيها تدريس النظريات التي لا تقر بصحتها ، ونكلت بأهلها في غير رحمة .

#### دعوة لوثر للاضطهاد

وإذا كان لوثر قد احتج على كبح الآراء وإحراق الملحدّين ، فقد كان هذا يوم كان يخشى أن يكون مع جماعته ضحية هذا الاضطهاد الكنسى الدامى ، فلما أمن شر خصومه ، وقوى مركزه وتوطد نفوذه أعلن رأيه الصحيح ، فأوجب على الدولة أن تفرض ما يبدو لها رأيا سليما ، وأن تستأصل الهرطقة لأنها رجس من عمل الشيطان ، وأوجب على الناس أن يطيعوا أميرهم في أمور دينهم ودينهم على السواء ، وصرح بأن غاية الدولة حماية الدين من المارقين ،



وجاهر بإعدام طائفة منكرى التعميد Anabaptists بالسيف بعد انسلاخها عنه ، وبهذا أدت عقيدة الخلاص إلى نتيجة واحدة عند الكاثوليك والبروتستانت على السواء !

### موقف البروتستانت من امران سرفيتوس

أما كلفن - الزعيم الثاني للبروتستانتية - فقد كان أشد تعصبا لأرائه وضيقا بمخالفيه ، وقد اتفق في الرأي مع لوثر في إقرار السلطة المطلقة للحاكم ، وانتصر لسياسة الدولة عن طريق الكنيسة ، فأيد بذلك الحكومة التيوقراطية التي يتولاها رجال الدين الذين يعملون بما يوحي اليهم ، بل أنشأ حكومة من هذا النوع في جنيف فجمع بذلك بين السلطتين : الروحية والازمنية ، وتمكن بهذا من أن يسحق حرية الضمير والنظر العقلي وينكل بخصومه نفيا وحرقا وإعداماً ، وموقفه من مصرع « سرفيتوس » أعدل شاهد على ما نقول ، فقد كتب سرفيتوس الأسباب التي يهاجم عقيدة التثليث : الآب والابن والروح القدس ، وسجن في ليون لأسباب كان منها دسائس كلفن ، ولكنه فر من سجنه ولاذ مسرعا بجنيف حيث يقيم كلفن حكومته ، فاعتقل وقدم للحاكم ، وأدين وصدر قرار بإعدامه حرقا عام ١٥٥٣ م . فاستخف الطرب المصلحين وباركوا بالإجماع هذا الأثم سوى رجل واحد برم به وأعلن رأيه متخفيا أثنى

ملانكتون Melanckton على هذا العمل كمثل طيب للأجيال التالية (١) . . . !  
 وكتب بولنجر Bullinger وفارل Farel يشيدان في غمرة من الفرح بهذا العمل  
 المجيد ! ووضع بيزا Beza رسالة طيبة زاد فيها عن هذا العمل ! وكان الرجل  
 الوحيد الذي أعلن ضيقه بذلك ، هو كاستليو Castellio أو شاتيلون Chatillon ،  
 فكان أول بطل للحرية ، سباق إلى مجال المذهب العقلي ، مع أنه تخفى تحت اسم  
 Martin Bellins اتقاء لشر المتعصبين ! وقد اتصلت في بدء حياته أسباب  
 الصداقة بينه وبين كلفن ، ولكنه هاجم نظريته في القضاء الأزلي ، وترجم  
 الإنجيل إلى اللاتينية وتناوله بالنقد الحر وأهاب بالعالم المسيحي أن يتحرر من  
 قيود التعصب ويعتق مبدأ التسامح المطلق ، القائم على منطق العقل ووحى  
 العدالة . ومن هنا كان ضيق كلفن به وحقده عليه ، فاستعاض كاستليو عن  
 صداقته بصداقة زميله في طلب التسامح «سوسينوس» .

ويصرح بيزا بعد مصرع سرفيتوس ، بأن كاستليو وسوسينوس كانا  
 الوحيدين اللذين ضاقا بإحراقه ، ولكن «ليكي» ينكر صحة ذلك ، ويستند في  
 هذا إلى نصوص من بيزا نفسه ، ومن هلام Hallam الذي كشف في كتابه  
 «تاريخ الآداب» عن ثلاثة أو أربعة كتب أو رسائل كتبت في هذا الوقت  
 تأييدا للتسامح - فيما يقول الاستاذ ليكي Lecky .

(١) ولكن هذه الأجيال قد أحست بالمهانة لارتكاب هذا الإثم حتى شعر أتباع كلفن في  
 صيف عام ١٩٠٣ أنهم مضطرون لإقامة ضريح تكاري لسرفيتوس ، تكفيراً عن خطأ كان  
 خطيئة العصر كله



ومن المؤرخين من يقول إن ميل البروتستانتية للاضطهاد كان في المراحل الأولى من حياتها، وأنها ما لبثت أن نزعت إلى التسامح وبشرت بالحرية الدينية، وأن كلفها بالاضطهاد في أيامها الأولى قد ورثته عن الكنيسة الرومانية !

ونحن مع تسليمنا بأن البروتستانتية كانت بعد مراحلها الأولى أسبق إلى طلب التسامح والدعوة للحرية الدينية، نرى أنها بدأت حياتها بمهاجمة الاضطهاد وسرعان ما ارتدت إلى التعصب وزاولت القمع بمجرد أن تهيأت لها سلطة تمكنها من ذلك !

#### البروتستانتية ومرعات التنوير

لا تمثل عقائد البروتستانت حركة تنوير Enlightenment فقد عاды الإصلاح الديني حرية النظر العقلي كما قاوم حرية الاعتقاد، وكان العلم متى حاد عن ظاهر الإنجيل، تساوى في التصدي لمقاومته لوثر زعيم البروتستانت والبابا الرئيس الأعلى للكاثوليك ! وقد أخفق تطور العلم إخفاقا معيبا في ألمانيا التي انصر فيها ركب البروتستانتية .

وقد أقرت البروتستانتية بمختلف شعوبها - من لوثرية وكلفنية وإنجيلية - عقوبة الإعدام قانونا يخضع له كل من خالف عقيدتها، وقد قاوم زعيمها الأول - لوثر - المذهب الأرسطاطاليس وسمى صاحبه بالخنزير الدنس الكذاب، وقال عن كوبرنيكوس - وهو أول رائد عرفه تاريخ علم الفلك الحديث - إنه

أول منجم مأفون مصاب بمس ، ولم يكن الزعيم الثاني - كلفن - بأرحب صدرا من صاحبه وإن كان أقصر منه باعا في مجال السباب ، فقد قاوم حرية الضمير والنظر العقلي ، ونكل بمن وقع في يده من أهلها شر تنكيل ، ومن ذلك أنه أعلن تكفير كل من أنكر القول بأن الأرض - لا الشمس - مركز الكون ! فيما يروى هوايت وغيره من مؤرخي النزاع بين الدين والعلم .

## نعقيب

شب الصراع الأثم بين الكاثوليك والبروتستانت ، وأثزلت الكنيسة برواد الإصلاح الديني وأتباعهم عذابها الأليم في غير رفق ، وأضمرت نيران الحروب التي زهقت فيها نفوس هؤلاء الرواد وأريقتم دماؤهم - على كره من المسيحية السمحاء ، كما عرفنا في الفصل السالف ، ولكن المصلحين أثاروا غضب الكنيسة بمبادئهم في إقرار حق الحكم لكل إنسان ، ومقاومة السلطة الكنسية المستبدة . . . . قد أهملوا شأن العقل بعد المرحلة الأولى من جهادهم ، وانساقوا وراء « منطقهم الديني ، فأنكروا المبادئ التي نادوا بها ، وطاردوا خصومهم بنفس الروح التي طاردتهم بها خصومهم من قبل . . . جاهرُوا بالتعصب لمبادئهم ونزعوا إلى التشكيل بالخارجين عليهم ، وضاع في عباب هذه الثورة مبدأ التسامح والحرية الدينية ، حتى نهضت للدفاع عنه بعض الشيع الدينية التي عدت في نظر المصلحين الدينيين في زمرة الخوارج المارقين . . . وقد أيد قضيتهم في الحرية الدينية دعاة الشك وأتباع المذهب العقلي كما سنعرّف في الفصل التالي :



التسامح الديني

رفیقہ کا دستاویز



## فجر التسامح الديني

مساهمة الاصلاح الديني في تأييد الحرية الدينية - فضل العوصنية علي ابتداع الحرية الدينية - الفصل بين السلطتين عند منكري التعميد - بدء التسامح في انجلترا - رواد التسامح في انجلترا - التسامح الديني في فلسفة لوك - التسامح في انجلترا بعد القرن السابع عشر - نداعي الاضطهاد في فرنسا بظهور الشك - رواد التسامح في فرنسا - حملة فولتير على التعصب الديني - دفاع فولتير في قضايا التعصب : مأساة جان كالا - دفاع فولتير في هذه المأساة - دفاعه في مأساة سيرفين - حقيقة التسامح عند فولتير - موقف روسو من الاضطهاد التسامح المطلق في الثورة الفرنسية - مغزى تاريخ التسامح في انجلترا وفرنسا - انتصار التسامح الديني في ألمانيا - أثر ألمانيا في غيرها من الدول - قيام الحرية الدينية في اوروبا في القرن العاشر - أسباب اضطهاد اليهود - تعقيب .

أشرق التسامح وأذن التعصب بالمغيب ، يوم نضج وعى أحرار الفكر واشتد ضيقهم بالاضطهاد ، فتسكتلت جهودهم واتجهت الى القضاء عليه بتقويض النفوذ الذي تهيأ لأهله ، وإخماد التعصب الذي اضطرت في قلوبهم جذوته ، وكان الشك ، أفنك سلاح شهره العقليون في وجوه المتزمتين ، وحاربوا به بالرغبة في الاضطهاد . فلنمهد لبيان هذا بكلمة عن مدى المساهمة التي قدمها رواد الإصلاح الديني في تأييد الحرية الدينية :

مساهمة الاصلاح الديني في تأييد الحرية الدينية

مهدت الطريق إلى الحرية الدينية ، مبادئ الإصلاح الديني على غير

قصده من أهلها ، ومن غير أن يهدفوا مباشرة إلى تأييدها !

ولم يكن في الإمكان أن تنتصر قضية الحرية على السلطة الدينية . ولكن هذه السلطة قد ضعفت بتعدد الآلهة وكثرة السلطات اللاهوتية وزعزعة التقاليد الدينية بحركة النقد التي أثارها الإصلاح الديني ، وهذا بالإضافة إلى أن السلطة الإمبريكية العليا كانت في الدولة البروتستانتية في يد الحاكم ، ولهذا الحاكم مصالحه الدنيوية وظروفه السياسية التي تضطره إلى العدول عن تعصبه الديني أحياناً .

على أن الثورة البروتستانتية في وجه الكنيسة ، كانت تستند إلى إقرار حق الحكم الفردي وهو مبدأ الحرية الدينية ، ولكن المصلحين قد أكدوا هذا الحق لأنفسهم وحرموه على غيرهم بمجرد أن صاغوا مذهبهم ووطدوا مركزهم ، وكان في هذا التناقض الصريح في موقفهم ما يوهن نفوذهم ويضعف سلطانهم ، إذ لماذا يخلع الناس نير السلطة الكنسية في روما ، ليخضعوا لسلطة لوثر على حداثة عهده ...؟ إن التمرد على روما ينبغي أن يقوم على العقل وحده ، وما دام العقل أساس التمرد فلن تقف الثورة عند لوثر أو كلفن أو غيرهما من الثائرين ، إلا إذا افترض الناس أن أحدهم يصدر عن وحى وألهام ! وإذا رفض الناس الخرافات كما رفضها هؤلاء المصلحون ، فلا شيء قط - مع استثناء سلطتهم - يمنع من رفض الخرافات التي تمسك بها دعاة الإصلاح ، على أن دعوتهم في رفع احتكار الكنيسة لتفسير الكتاب المقدس وإباحة حق تفهمه للناس جميعاً ،



لغقت أنظار الناس إليه ، وإذا كانت دراسة الإنجيل لم تصادف قبولا في الجامعات الألمانية حتى القرن السابع عشر ، بل لم يجد الإنجيل بين الجمهور قرء كثيرا قبل القرن الثامن ، فإن اتجاه الناس إلى دراسته وإن جاء متأخر ، قد أفضى إلى حركة من النقد كان لها أثرها في إقرار الحرية الدينية ، ومن ثم في توكيد النظر العقلي ، وقد عاش النقد الإنجيلي في جو پروتستانتي ، ومن هذه الناحية كان المذهب البروتستانتي أداة لإقرار كفاية العقل للتفكير وتوكيد النزعة العقلية ، وهذا هو الذي خدم قضية الحرية على غير قصد من دعاة الإصلاح - فيما يقول بيوري -

وقد مكن لهذه القضية وخدمها عن طريق مباشر طائفة من المصلحين اتهمها البروتستانت والكاثوليك بالإلحاد ، وأغفل الناس أمرها حتى أصبح الذهن لا يلتفت إليها إذا ذكر الإصلاح الديني ، وهذه الطائفة هي « الصوصنية » ، فلنقف عندها قليلا :

#### فضل الصوصنية على ابتراع الحرية البريانية

« الصوصنية » طائفة من مصلحي الطليان الذين انشقوا على الكنيسة في روما إبان القرن السادس عشر ، وأنكروا عقيدة التثليث وأقاموا مبدأ التوحيد في المسيحية وأنكروا ألوهية المسيح ، ونسبوا الربوبية إلى الأب (وهو الأبنوم الثاني في الثالوث الأقدس) ، فقاومت الكنيسة حركتهم وأفلحت في قمعها ، وفر الكثيرون منهم مهتمين بالهرطقة إلى سويسرا ، ولكن المصلح المنشق على الكنيسة - كلفن - قد طاردهم بتعصبه الذميم فلاذوا بترنسلفانيا وبولنדה فراراً ، وهناك أذاعوا عقيدتهم التي أقاموها على مبدأ التوحيد ،

وقد صاغ عقيدة الصوصنية « فوستو سوزبونو » Fausto Suzziono الذي أطلق اسم « سوسينوس » Socinus عليها عليه ؛ وقد كانت أصول الإيمان عند طائفته ( ١٥٧٤ ) تقضى بإنكار الاضطهاد ورفض القوة أداة لخدمة الدين وتوكيد عقائده ، وكانت هذه نتيجة طبيعية أدت إليها النظريات الصوصنية ، إذ كان أتباعها - على عكس لوثر وكلفن - يبشرون بحرية الضمير والتفكير ، ويلحون جادين في منح كل إنسان حق الحكم الفردي في تأويل الكتاب المقدس ، فسكنوا بهذا للنزعة العقلية التي كانت تعوز عقائد التثليث ، وساهموا بهذا في الدعوة لحرية النظر العقلي وتوفير أسباب الطمأنينة لرواد الفكر الحديث .

وتحت تأثير الروح الصوصني أعلن كاستليون السافوي Castellion of Savoy مبدأ التسامح في رسالة شهر فيها بتعصب كلفن وحقده ، وندد بموقفه من إحراق سرفيتوس وسخر من ذلك الاهتمام الذي توليه الكنائس للمسائل الغامضة ، كعقيدة التثليث والقضاء والقدر ، وأعلن أن الدين إذا صاحبه الاضطهاد كان لعنة ومجلبة للحن !

وقد طارد الصوصنية خصومهم في بولنדה فانطلقوا إلى ألمانيا وهولنده ، وكانوا وحدهم الممثلين لمبدأ التسامح ، فاعتنقهم منهم في ألمانيا الأنا بابتست - منكرو التعميد - وهم طائفة دينية ثورية تابعت لوثر في أول أمرها ، ثم لم يرقها منه اعتداله ولبنه فانسلخت عنه ، وقاتلتهم الكنيسة الكاثوليكية قتالا داميا انتهى بسحقهم ؛ كما سلم بهذا المبدأ في هولنده طائفة من أتباع أرمانوس الهولندي الذين آمنوا بالإصلاح الديني .



على أن مذهب الصوضنية وإن كان قد ساهم في تحرير الضمير والنظر العقلي فقد شجع قيام الاتحاد الوثيق بين الدولة والكنيسة ؛ مع أن الاتجاه الذي يمكن لحرية الضمير والعقل ويرفع كل عرقلة في طريق أهلها ، هو الفصل بين السلطتين : الزمنية والدينية ، وهذا هو الرأي الذي ذهب إليه جماعة الأناباوتست - منكري التعميد .

#### الفصل بين السلطتين عنز منكري التعميد

لم يكن الرأي العام في أوروبا من النضج بحيث يسبغ مبدأ الفصل بين السلطتين ، إذ انعقد رأي الهيئات الدينية القوية على أن التسامح ليس إلا تغافلاً بمقونا ! وإن كان مبدأ الفصل قد عرف إبان القرن السابع عشر ، في ركن صغير من العالم الجديد وراء الأطلنطي ، عند البيوريتان الذين طاردتهم الكنيسة الإنجليزية وحكومتها فأقاموا مستعمرات في نيو إنجلند ، واعتصموا بالتعصب وطاردوا الإنجيليين والكاثوليك على السواء ، بل امتد تعصبهم إلى منكري التعميد والسكويكوز ؛ ولكن أحدهم - وهو روجر وليامز - قد أخذ عن أتباع أرمانوس الهولنديين فكرة الفصل بين الدولة والكنيسة ، وأنشأ مقاطعة «بروفيدانس» وجعلها ملاذا للمضطهدين ، ووضع نظاما ديمقراطيا قرر فيه منع الحكام من التدخل في الشؤون الدينية ، وقامت مدن في جزيرة رودس على هذا النمط ، وأيد تشارلس الثاني (ملك إنجلترا) ( عام ١٦٦٣ م ) هذا الدستور بمرسوم أذن فيه لرعاياه بأن يدينوا بأي مذهب مسيحي يروق لهم . . . وأن يباشروا حقوقهم السياسية كاملة غير منقوصة ، فكان روجر وليامز بهذا ،

صاحب الفضل في إقامة أول حكومة حديثة، زاوالت التسامح الصحيح، وقررت إقصاء الشئون الدينية عن متناول الحكومة المدنية.

وكان أنصار الحرية الدينية في مختلف بقاع العالم المسيحي يجاهدون لإقرارها، فينتصر التسامح حيناً ويتلاشى أحياناً، حتى اشتد ساعد. أحرار الفكر وعلا صوتهم وآتت دعوتهم أكلها.

وقد كان نجاح التسامح الديني في تاريخ العالم البروتستانتي والكاثوليكي على السواء مرهوناً بقيام المذهب العقلي ونموه، وتقبل بعض الناس لدعوته، لأنه قوض أسس القمع الشديد وهاجم نفوذ الذين يزاولون الاضطهاد، وزعزع الأسس التي بنوا عليها دعوتهم.

برء التسامح في إنجلترا:

وقد تجلّت النزعة إلى حرية الفكر وتخليصه من القيود وتحريره من ضغط الساطات إبان القرن السابع عشر، فيه اشتد النزوع إلى اكتشاف الحقيقة ومهاجمة الحكم المبتسر، وتقويض السلطة التي كانت لا تزال - برغم ماوجه إليها من حملات - مصدراً للحقائق. وقد مهد هذا كله لانحياز الاضطهاد بتداعي الأسس التي قام عليها.

وفي هذا القرن انبعثت صيحات الحرية في إنجلترا طويلاً وعرضاً، واتجهت الهمم في مجال السياسة والدين إلى العمل على تحقيقها، وفي عهد تشارلس الأول + ١٦٤٩ نهض حزب البيوريتان على أكتاف المتطرفين من البروتستانت



وكثير أتباعه ، واضطلعوا بقتال الملك تحت زعامة كرمويل ليلزموه الإذعان لرأى الشعب ، ويحولوا دون إدخال المذهب الأسقفي وفرضه على الاسكتلنديين بالقوة .

وقد حاول كرمويل أن يقر سياسة التسامح ، وكان الإنجليز على خلاف ، ففريق المستقلين Independents الذى يناصر كرمويل كان يطالب بالتسامح ، ويرغب فى أن يمنح الكاثوليك حرية الاعتقاد ، وقد نجح فى عام ١٦٥٣ فى إقرار هذا الاتجاه ، وذهب كرمويل - مؤيدا من المستقلين - إلى أبعد من هذا ، فأقر التسامح على اليهود وأذن لهم بمزاولة عباداتهم . . . وأما المهتدون أو أتباع الكنيسة المشيخية « البرسبتريون » Presbyterians فقد كانوا يميلون إلى أن يقصروا حق التسامح على الذين يسلّمون بأصول المسيحية ومبادئها الجوهرية (١) وقد حاولوا فى عام ١٩٤٨ أن يستصدروا من البرلمان قرارا بإعدام كل من بشر برأى يتعارض مع عقيدة التثليث والتجسد ، وبالسجن مدى الحياة لكل من بشر بمذهب أرمانوس (١) البابوى أو بعقائد الكويكرز ، إلا إذا قدموا كفالة أو ضمانة بعدم تعليم هذه العقائد بعد (٢)

(١) هو كاهن هولندى مات عام ١٦٠٩ وقد أنكر نظرية كلهن فى القضاء الأزلى المطلق وقال بسبق اختبار الله فتتاربه

(٢) كان الهولنديون يواصلون جهودهم لتفع حرية الضمير ، وفى سنة ١٦٤٥ وجه برلمانهم إلى البرلمان الإنجليزى خطابا يحثه فيه على عدم التسامح مع أى طائفة أو شيعة دينية تتعارض تعاليمها مع مبادئهم ، ثم أذاع فى نفس الوقت منشورا يهاجم فيه التسامح وحرية الضمير !

## رواد الفساح في إنجلترا:

وفي هذه المرحلة من الزمن نهض بالدعوة إلى التسامح ثلاثة من المفكرين البارزين هم هارنجتون Harrington وملتون Milton وتايلور Taylor. وقد أدرك أولهم أن الحرية السياسية لا تستقيم بغير حرية دينية مطلقة، لأن الحرية الدينية تتضمن حرية الضمير، وهذه تتضمن بدورها الحرية المدنية، وتكون حرية الضمير متى تمكن الإنسان من مزاوله عباداته ومباشرة تعاليم دينه وفقاً لإيمانه وضميره وحده - من غير عائق أو تدخل من الحكومة

وإذا كان هارنجتون قد تحرى الدفاع عن حرية الضمير في أوسع معانيها، فقد تصدى ملتون لتأييد هذه القضية والدعوة إلى فصل الكنيسة عن الدولة وقد بدا هذا في رسالته القيمة التي ذاد فيها عن حرية النشر (١)

وقد كان للفردوس المفقود Paradise lost عند ملتون أوفر حظ في إيقاظ الحرية في نفوس الناس. وأما دفاعه عن التسامح فقد أقامه على أساس أن قيام الحق لا يتطلب الاضطهاد، بالإضافة إلى أن الاضطهاد يعوق اكتشاف الحقيقة... (٢) الخ

ولكن ملتون مع هذا يستثنى الكاثوليك في تطبيقه لمبدأ التسامح بحجة أن عبادتهم وثنية، وأن العهد القديم، قد نهى عن عبادة الأوثان  
ثالث المفكرين السابق الذكر كان تايلور، ويعتبر كتابه Liberty of Prophesying

(١) أنظر رسالة Of True Religion, Heresy, Schism, Toleration ١٦٧٣

(٢) أنظر رأيه في كتابنا قصة النزاع بين الدين والفلسفة



مع استثناء كتاب شلنجويرث (١) - أعظم مساهمة قدمتها الكنيسة الإنجيلية في الجهاد من أجل التسامح، إن فيه دفاعاً عن الكاثوليك ونزوعاً إلى التسامح معهم ما لم يعلنوا جهراً أنهم يبيحون لرعايا الأمير الملحد أن يقتلوه أو أن يدشروا بعدم التعاون مع الملحد، أو يزعموا أن في وسع البابا أن يغفر ذنوب المتمردين من رعايا الحكام والكتاب بعد هذا فيض من الرحمة والرفقة يجرى بالخيال الخصب والعواطف الكريمة عذبا سلسيلا. وهو يقيم حجته في طلب التسامح على أن القضايا التي يقول بها رجال اللاهوت لا يسهل استنباطها من الكتاب المقدس، فمن الخطأ البين أن يطالب الناس بالتسليم بها، وعقيدة الرسل تتضمن المعتقدات التي يمكن التدليل على صحتها، وكل خطأ يقع فيما وراءها من مسائل لا يؤثر على عقيدة الخلاص، ومن هنا وجب التسامح مع من يخطئ في مثل هذه المسائل الثانوية. ولكن تاييلور قد وضع كتابه السالف وهو في منفاه، ولما استعادت الكنيسة نفوذها تخلت عن بعض مبادئه وكان في هذا ما يسيء إلى سمعته.

وفي الحق إن مرجع الفضل في دفاعه عن التسامح إلى أنه يدين بالشك، والشك لا يساوره إلا لأنه يدين بالعقل ويقول بكفايته، وحسبه هذا أداة لتقويض التعصب والاضطهاد.

وقد استمرت الدعوة إلى التسامح طوال الفترة التي أعيدت فيها الملكية إلى

(١) Chillingworth, The Religion of Protestants وانه نشر عام ١٦٣٧م

تشارلس الثاني ، وبدأت هذه الحركة في مدرسة من أحرار الفكر في لندن ، تهدف إلى التوفيق بين الشيع الدينية في ضوء المنطق العقلي ، هي Latitudinarian School ، وقد حدثت في نزاعاتها حذو شلنجويرث الذي أشرنا إليه من قبل . وأقامت هذه المدرسة دفاعها عن التسامح على أساس التمييز بين أصول الدين وفروعه ، فكتب جلا نجيل Glanvill أحد أتباعها رسالة عن زهو الاستبداد بالرأى Vanity of Dogmatizing بشر فيها بالشك الهدام وتسلسل منه إلى طلب التسامح المطلق ، ووضع ثبنا بأصول المعتقد الديني ، وأكد ضرورة التسامح مع غيرها من فروع .

وسرعان ما تسلك هذه الروح وبدأت في سن القوانين ، ففي عام ١٦٧٢ قدم تشارلس الثاني لائحة التسامح الديني ، وفيها حرر الكاثوليك والبروتستانت من بعض ما كان يرهقهم من وجوه التضييق ، وإن كان البرلمان قد أكرهه على سحبها ! وقد كان حزب التوري Tories والويجس Whigs - وكلاهما نشأ في عهد تشارلس الثاني + ١٦٨٥ - يميلان إلى الاضطهاد ، يسرف فيه الأول فيرغب في اضطهاد كل من خالف مذهب الكنيسة الرسمية ، ويترفق الثاني فيقرر التسامح مع سائر المذاهب البروتستانتية ! وكلاهما يعادي الكاثوليك ! وبعد ثورة سنة ١٦٨٨ المجيدة أصدر البرلمان في عام ١٦٨٩ قانون الحقوق الذي حرم فيه على الكاثوليك اعتلاء العرش الإنجليزي أو مزاوله عباداتهم ، وبهذا دانت إنجلترا بالبروتستانتية رسمياً . .

وفي نفس العام صدر قانون التسامح ، وبه أبيضت الحرية الدينية للمبتدئين



أو البرسبتيين Presbyterians والأبرشيين القائلين باستقلال الكنائس إداريا Congregationalists وأصحاب التعميد Baptists والكويكرز Quakers وحرمت الحرية على الكاثوليك والموحدين Unitarians وبقي مرسوم تشارلس الثاني قائما ضدهم ، وكانت هذه التدابير تجمع بين التعصب والتسامح ولكنها تسير روح العصر الذي صدرت عنه

### التسامح الديني في فلسفة لوك :

ولكن الفيلسوف جون لوك + ١٧٠٤ قد مثل في السياسة مبادئ هارتجتون ، وحذا في الدين حذو شلنجويرت ، فتصدى للدفاع عن التسامح وخاصم فيه أعداءه من لاهوتى أكسفورد ، وفي مقدمتهم رئيس الشمامسة بروست Proast الذى تولت الجامعة طبع رسائله

اعتنق لوك مبادئ الكنيسة الانجيلية وأبلى في الدفاع عن العقل بلاء حسنا ، ليقيه طغيان السلطة ، ويبعد عنه سلطان النقل ، وقد وضع في عام ١٦٩٠ أعظم مؤلفاته الفلسفية مقال عن العقل البشرى ، وفيه دلل على أن التجربة مصدر المعرفة ، وبهذا انتزعها من مجال السلطة وحرر الحقيقة من قيود الدين وأخضع الإيمان لسلطان العقل ، فصرح - مع إيمانه بالوحي المسيحى - بأن الوحي إن بدا على تناقض مع العقل وجب رفضه وعدم الإذعان لأمره . . . ١

كان توماس هوبز + ١٦٧٩ قد ذهب إلى جمع السلطة التشريعية والتنفيذية والدينية في يد الحاكم بحجة أن الإنسان يؤثر مصلحته على كل اعتبار ، وقد أساء رجال الدين استغلال السلطان الذي تهبأ لهم ، ولهذا وجب أن يسحب منهم ويركز في يد الحاكم المستبد ، وباستبداده العادل ترتفع الموضوعات الدينية عما تستهدف له من وجوه الجدل ، وبهذا يكون من حقه هو وحده أن يفرض على رعاياه الدين الذي يراه - وإن كان هوبز قد عدل أخيراً عن هذا الرأي لأن أكثر الإنجليز بروتستانت يحكمهم في ذلك الوقت كاثوليك - بهذا يكون هوبز قد أقر الاضطهاد الديني ولكنه نقله من يد الكنيسة إلى يد الحاكم المستبد ، أما «لوك» فقد انطلق - على عكس هوبز - يبشر بالحرية الدينية وينادي بتحرير العقيدة من طغيان الكنيسة والدولة معا ، ويهدم النزعة الاستبدادية ويستبدل بها الحرية والتسامح المحمود ، ويطالب بفصل الكنيسة عن الدولة ليكفل تحقيق هذه الآمال الباسمة .

وقد وضع «لوك» في عام ١٦٨٩ رسالة عن التسامح الديني أورد فيها بثلاث رسائل يتم فيها البحث في هذا الموضوع ، أثبت فيها أن مهمة الحكومة تختلف كل الاختلاف عن مهمة الدين ، فالحكومة وظيفتها المحافظة على مصالح رعاياها المدنية والعمل على ترقيتها ، وليس عالم الروح من اختصاصها ، لأن الحاكم لا يملك إلا القوة المادية ولا شأن لمثل هذه القوة بالدين ، إذ أن التدين يقوم على اقتناع العقل اقتناعاً باطنياً ، وقد صيغ العقل بحيث إن القوة لا تستطيع قهره وإكراهه على الإيمان ، ومن أجل هذا كان من خطئ الرأي أن تعتمد الدولة على إصدار



قوانين تفرض بها ديننا من الأديان ، لأن القوانين لا تستقيم بغير عقوبات  
تفرض على من يعصى أمرها ، وليس في وسع العقوبة أن تيسر سبل الإقناع  
أمام الناس .

طالب « لوك » ، بتحرير العقيدة من سلطان الدولة وطغيان الكنييسة  
معا ، لأن الكنييسة في رأيه ليست إلا « هيئة مختارة حرة » ، ولو كان  
من الضروري أن تفرض المسيحية على من كفر بها عنوة واقتدارا ، لكان  
من الأيسر على الله أن يهدي هؤلاء الضالين بفيالق من كتائبه في السماء ،  
بدلا من أن يحقق هذه الهداية أحدهم أتباع الكنييسة . . . وهذا يذكرنا بقول  
الامبراطور تباريوس : إذا كان في المعتقدات الإلهية إساءة إلى الآلهة ، فعلى  
الآلهة أن تقتص لنفسها .. !

على أن « لوك » - مع هذا كله لم - يتخلص من أوهام عصره وأحكامه المبتسرة  
فقد ناقض مبدأه في حرية الاعتقاد واستثنى من مبدأ التسامح الكاثوليك  
والهرطقة ، لأن هؤلاء الذين لا يؤمنون بوجود الله ، لا يقيمون وزنا لعهد  
ولا قسم ولا ميثاق ، وبغيرها لا يستقيم المجتمع الإنساني ، ثم إنهم بتقويضهم  
الأديان كلها لا يملكون الادعاء بأن لهم ديناً يعطيهم الحق في طلب التسامح . !

التسامح في إنجلترا بعد القرية السابع عشر

وفي عام ١٦٨٩ - قبل بمات لوك - صدر في إنجلترا مرسوم بالتسامح ،  
ولكنه كان تسامحا أبتز ناقصا ، إذ حرم فيه من التسامح الكاثوليك والموحدين ،

ولكنه مهد لشيوع النسامح الصحيح بعد ذلك ، فاستقر في انجلترا أمر النسامح النسبي إبان القرن الثامن عشر ، وخفت حدة التعصب وتسلك النزعة العقلية إلى الأحبار البارزين ، وسرعان ما بسط النسامح جناحه على الكاثوليك والموحدين ، فصدر في مطلع القرن الغابر ( في عام ١٨١٣ ) قانون بحرية العبادة للوحدين ، وإن كانوا لم يزاووا لها إلا في عام ١٨٤٠ . ثم صدر في عام ١٨١٩ قانون آخر يقضى بتخفيف القيود المفروضة على الكاثوليك . واستمتع اليهود بحقوقهم المدنية كاملة عام ١٨٥٨ ، وهكذا مضى أحرار الفكر بانجلترا البروتستانتية في طريق النسامح الديني قدما ، منذ القرن السابع عشر حتى القرن الغابر .

ونلاحظ مما أسلفنا ، أن أول خطوة نحو النسامح في انجلترا ، مرجع الفضل فيها إلى روح الشك الذي حطم الأسس التي قام عليها مبدأ الاضطهاد ، وأن أعظم المحامين دفاعا عن النسامح كان ممن تربطهم بالدين أوثق الصلات ؛ هذا عن قصة النسامح في انجلترا ، فلنعرض في إيجاز إلى قصته في فرنسا :

#### نزاعى الاضطهاد في فرنسا بظهور الشك

قلنا إن الاضطهاد لا يستقيم بغير سلطة تمكن أصحابه من جندلة خصومهم وتقويض هذه السلطة لا يخدم نار الحق ولا يقضى على الضغينة التي تحك في الصدور ، وإنما يتلاشى هذا كله يوم يستنير المتعصبون ويلجأون إلى منطق العقل ووحى العدالة ، يلتمسون في رحابه الصفاء والوثام .



وتاريخ التسامح الديني يقول إن انتصار الحرية الدينية قد تم على يد العقليين ، يوم بدأوا بالشك في الأسس التي قام عليها الاضطهاد ، فلما تداعت هذه الأسس انهار الاضطهاد بتداعياها ، وكان هذا أوضح ما يكون في فرنسا التي اضطرت بالشك الهدام في أواخر القرن السادس عشر على يد مونتاني Montaigne وسانشيه Sanchez ، ثم نهدت جذوته في عباب الدعوة إلى العقل في القرن الذي تلاه ، فهادت الفلسفة الدين على يد ديكارت ومدرسته . (١)

ثم اتقدت النزعة العقلية في القرن الثامن عشر ، وبدأت في حملة فولتير وأقرانه على التعصب والاضطهاد ، وكتب لأحرار الفكر أن يهدوا الطريق لقيام الثورة الفرنسية ، فلنقف لتفسير هذا قليلا :

### رواد التسامح في فرنسا

في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن الذي تلاه ، أثار الشك في نفوس الناس مونتاني وديكارت وبايل Bayle وإن كان شك كل منهم يخالف شك صاحبه خلافا ملحوظا .

فأما مونتاني فلم يجد مبررا للثقة في أدوات المعرفة البشرية من عقل وحواس ، وارتاب في قدرتها على التوصل إلى الحقيقة فاتمى بهذا إلى الشك الهدام ؛ ولكنه كان مع هذا الشك كاثوليكيا وفيما لدينه القديم ، ومقالاته تبشر بالمذهب العقلي وتجهز في نفس الوقت بالكاثوليكية الصحيحة . وقد لزم الموقف الشكي

(١) انظر كما بنا قصة النزاع بين الدين والفلسفة من ١٦٧ وما بعدها

الذي لا يرى إمكان التوفيق بين العقل والدين لأن العقل قاصر في ميدان اللاهوت ومن أجل هذا وجب إبعاد الدين عن تدخل العقل لكي يقبل الناس على اعتناقه من غير جدل .

اقتصر شك مونتاني وغيره من أعلام مدرسته على العلم والفلسفة لم يتجاوزهما إلى مجال الدين ؛ ولكن شكهم كان هداما ، ومن هنا كان تأثيره في زعزعة الأسس التي استند إليها التعصب والاضطهاد .

وأما ديكارت + ١٦٥٠ فقد اتخذ الشك منهجا يزاوله بإرادته ومن ثم استطاع أن يتحرر منه ، لم يقصد بشكّه إلى الهدم والتقويض ، بل أراد أن يحارب به شك مونتاني وغيره ، خاض ديكارت غمار الشك بإرادته فاتهى منه إلى اليقين ، فرد به سلطان العقل بضمان الله الذي وضعه في نفوس البشر ، ومن هنا كان الشك بده كل حكمة ، وإذا فليس الشك جريمة تستحق العقاب .

وقد كان « بايل » ناقدا متمازا يضطرم حماسة لنصرة التسامح ، وقد تصدى لمقاومة رجال اللاهوت الذين نزعوا إلى اضطهاد الأحرار استنادا إلى الآية الإنجيلية : أجبروهم على اعتناق دينكم ، واعتمادا على أقوال القديس أوغسطين ، فعرض بايل لمناقشة مزاعمهم وكتب « تعليقات فلسفية على آية أجبروهم ... الخ » ونشر الكتاب في نفس العام الذي صدر فيه كتاب لوك (١٦٨٦) .

وقد أكد بايل الشك في قيمة القوة أداة لإقرار الحق ، إذ لو كان استخدام القوة



في قمع الخطأ مبدأ صحيحا ، لما كان هناك حق بلغ من اليقين ما يبرر تطبيق هذا  
المبدأ (١) .

وقد كتب بايل قاموسه الفلسفي بأسلوب لاذع مر ، وفيه بدا من  
أعظم رواد الدعوة إلى الحرية الدينية .

على أن « بايل » لم يؤت من الشجاعة الأدبية ما يمكنه من مجابهة خصومه ،  
فكان يكتب متخفيا معتصما بالتقية ؛ وقد نشر كتابه السالف في تعليقاته على

الآية الإنجيلية تحت عنوان : *Contrains - les d'entrer, trad. ed l'anglais du Sieur Jean Fox de Bruggs Par M. J. F. : à Contorberry, chez Th. litwell* "

على أن الظاهرة المشتركة بينه وبين مونتاني وديكارت ، أنهم قاوموا  
التعصب وحاربوا الاضطهاد وانتصروا للتسامح ، كانوا عقليين لأنهم  
كانوا شككا - على ما بين شك كل منهم وشك الآخر من فروق

والحركة العقلية التي مثلها هؤلاء الثلاثة - وكانوا مصدرها إلى حد  
كبير - تجلت في سياسة هنري الرابع الذي أقر التسامح بمرسوم نانت الذي  
أشرنا من قبل إلى أنه أصدره عام ١٦٨٧ ورفع به عن الهوجونوت قيود  
الاضطهاد ، وإن كان قد حرّمهم من مزاوله بعض المهن ؛

ومرجع الفضل في هذا القانون إلى حركة عقلية نهض بها بعض أحرار

(١) انظر تفصيل هذا في كتابنا : السالف الذكر من ١٧٨ - ١٨٠

الفكر بمن ضاقوا بالتعصب ونزعوا إلى إقرار الحرية الدينية ، وقد تزعم هذه الحركة فولتير .

صحة فوائده على التعصب الديني :

كان فولتير 1778 + Voltaire طبيعياً مؤملاً Deist ، آمن بوجود إله هدت إليه طبيعة البشر ، ورأى أن هذا الاعتقاد ضروري لصيانة كيان المجتمع ، فإذا لم يكن الله موجوداً لوجب اختراعه ، فيجب أن يؤمن الناس بالله حتى تكون زوجتي أكثر وفاء لي ، وخادمي أقل نزوعاً للاختلاس ، وبهذا الإله الذي هداه إليه عقله استغنى عن الوحي والكتب المقدسة وأطلق على المسيحية اسم الكائن الوضيع . . . وحارب الكنيسة ورجالها ونادى بالتعصب والخرافات وجاهد لاستئصالها جهاد الأبطال ، وقاوم الاضطهاد ومزق جلود أهله ، واحتلت مواقفه في الدفاع عن التسامح الديني أبرز مكان في تاريخ الدفاع عن حرية الاعتقاد ، وكانت أولى حملاته كتيبا أسماء مقبرة التعصب الديني .

سببه بمجلس قال في مطالعه : إن من يعتقد دينه من غير تفكير - شأن السواد الأعظم

من الناس - كالثور الذي يستسلم للنير ويحمله راضياً . . .

ومن آثار فولتير القيمة التي خلفها لنا في مهاجمة التعصب رسالته في التسامح بمناسبة مصرع جان كالا Traité Sur la Tolerance وغيرها من رسائل أرسلها شواظاً من نار إلى المتزمتين الذين تحولوا تحت تأثير التعصب البغيض وحوشاً



آدمية مفترسة ، لاتردها عن ارتكاب الجريمة رحمة ولا تردعها عدالة ولم يكن مبدأ الفصل بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية معروفا في عصره وكانت الرقابة مفروضة على المطبوعات ، وعقوبة الإعدام مسلطة على من يعرض لنقد الدين ، ولكن كتاباته قد استبدت بهوى عصره ، إذ كان فولتير ترجمانه الصادق الذى عبر عن آلامه وآماله أحسن تعبير وأقواه ، وكان يقول : إن من يقول لك اعتقد بما أومن به وإلا نزلت بك لعنة الله ، لا يلبث أن يقول لك : ا اعتقد بما أومن به وإلا قتلتك ! ولا يمكن أن يسود على الأرض سلام قبل أن يعرف الناس كيف يتسامح بعضهم مع بعض فى مجال الفلسفة والسياسة والدين ، ويمثل هذه الروح كان يكتب فولتير . فلنعرض نموذجا لمواقفه الرائعة التى انتصر فيها للدفاع عن ضحايا التعصب الدينى فى فرنسا إبان القرن الثامن عشر ، ومبلغ النزوع إلى التسامح عند مفكرى هذا القرن !

دفاع فولتير فى قضايَا التعصب - مأساة كالا :

هذه قصة أسرة بروتستانتية عسف بها جور الكاثلكة فى تولوز ، هى أسرة جان كالا Jean Calas - وهو تاجر أقمشة من الهوجونوت - وكان القانون يقضى بأن يكون خدام الهوجونوت من الكاثوليك رغبة فى التجسس عليهم ، فكانت خدام الأسرة المعجوز كاثوليكية ، وكان أحد أبناء كالا ، يعتقد الكاثلكة ديننا ويعيش بمعزل عن أسرته ، ولكن أباه يقوم بالإتفاق عليه راغما ، كما كان يقضى القانون فى ذلك العصر ! وكان ثاني الأبناء - أنطوان - مغظا

محنقا ، لأنه أراد احترام الحمامة فحرمه القانون ذلك ، لأن الحمامة كانت من المهن المحظورة على الهوجوت مزاولتها ! ففكر في الارتداد عن مذهبه البروتستانتى إلى الكاثوليكية ، وكان مثل هذا الارتداد يؤذى كرامة الأسرة ويشوه سمعتها .

وفى ذات ليلة كان فى زيارة الأسرة صديق لها ، كشف عند الانصراف أن أنطوان الذى انسحب بعد العشاء ، ملق فى الطابق السفلى من الدار قتيلا . . . وكان لا يزال عالقا بعنقه رباط أسود ، وخفت الأسرة لمراه وأيقنت أنه استوفى أنفاسه ، انطلقت تصيح وتبكي مصير هذا المسكين ، وبادر الجيران إلى الدار يستفسرون عن حقيقة النبا فأبلغهم الأب أن ابنه قد اغتاله بعض الأشقياء .

ولكن الشبهات والريب قد ساورت الناس بصدد هذه الجريمة ، وامتدت الظنون إلى الأسرة أبا وأما وأخا وتجاوزتهم إلى الصديق الذى كان فى ضيافتهم ! وتأيد هذا الظن حين ثبتت رغبة القتل فى احترام الحمامة على غير جدوى ، وحين تأكد ميله إلى الارتداد عن مذهب أسرته واعتناق الكاثوليكية دينا ، وساعد على هذه الريب اشتعال التعصب الدينى فى نفوس الناس إبان هذا العهد ، واضطرار الأب إلى أن يتكفل بنفقة المرتدين عن دينه من أفراد أسرته ، مع أنهم يعيشون بعيدين عنه !

فاعتقل الذين حوّلهم الشبهات ، وكبلوا بالحديد وقدموا إلى



المحاكمة ، وكان قد جاء في التقرير الطبي عن هذا القتل ، إن احتمال انتحاره كاحتمال شنقه على يد آخرين ، كلاهما ممكن ! واستطال الجدل في غمار التحقيق الذي جرى بصدد ذلك ، واستغل الكاثوليك الحادثة أسوأ استغلال ، ونجحوا في إثارة الشعور الديني المتزمت من أجل هذا الشهيد الذي راح ضحية التعصب ضد السكلكة ..!

وتقررت إدانة المتهمين من غير دليل قاطع يثبت إدانتهم ، إلا مجرد الظن تحوم حولهم ، وكانت الإدانة بعد خلاف شديد بين القضاة الذين بلغ عددهم ثلاثة عشر قاضيا ، وصدر حكم الإدانة بأغلبية صوت واحد ! وأعدم « كالا » وقد نيف على الستين من عمره على آلة التعذيب ، وقبل إعدامه سيم مر العذاب فاحتمله صابرا ، ثم توسل إلى الله عند الممات أن يغفر لقضائه ! وبرأ برلمان تولوز سائر المتهمين وقضى بنفى أبناء كالا ، وألقى ابن وابنة له في الدير وتركت الزوجة لتموت جوعا ..!

### دفاع فولتير في هذه المسألة :

وكان فولتير أثناء ذلك قد نيف على الستين ولكنه كان فتى القلب وثاب الشعور ، يتدفق بيانه طلقا لا يقف ولا يتردد ، وتندلع من قلبه نيران تكوي ولا ترحم ، وكان يعلم أن السلطات الكاثوليكية تسوم الهوجونوت في جنوبي فرنسا سوء العذاب منذ أن ألغى مرسوم نانت وأطلقت يدها بالانتقام ، ويعرف أن القانون يقي جورهم ويحمي عسفهم بخصومهم ، لأنه يحرم العباداة

على غير الشعائر الكاثوليكية ، ويهدد بالإعدام عقاباً لمن ركب رأسه وعصى أمر القانون ، وكان الرأي العام الكاثوليكي من ناحية أخرى يرتاح للانتقام من الهوجونوت ، ولكن أبناء الجريمة قد تطايرت حتى اتصلت بسمع فولتير ، واقتنع ببراءة كالا وأسرته من دم القتل ، فوطن العزم على أن يرد هذا الظلم ويمزق جلود المتعصبين وينتصر لسياسة التسامح - حبا في مبدأ التسامح لا رغبة منه في نصرة طائفة على أخرى .

بدأ فولتير بالاستعانة بأصدقائه الذين كانوا على رأيه في جمع الأدلة التي تعين على إعادة النظر في القضية من جديد ، ونهض هؤلاء الأصدقاء بمهمتهم على خير وجه ، ثم حاول فولتير بعد هذا أن يغير اتجاه الرأي العام برسائل نارية وجهها إلى أصحاب النفوذ من أصدقائه ، ومنهم رئيس الوزراء في ذلك العهد . ثم اتهم بعض القضاة بأنهم أعضاء في جمعية كاثوليكية في تولوز ، ورأى أن الأب الذي نيف على الستين لا يقوى على قتل شاب في مقتبل العمر دون الاستعانة بغيره ، والقضاء يقول إن الذي أعانه زوجته وأحد أبنائه والحادم العجوز ، فكيف تقدم العجوز الكاثوليكية على قتل ابن تولت تربيته وعرفت ميله إلى دينها . . . ؟ وكيف يقدم أب وأم على قتل ابنها ؟ وكيف تتم جريمة القتل من غير معركة تترك خدوشاً أو جروحاً . . . ؟ ثم كيف يشنق الأب ابنه ويعود فيرفع عنه الحبل وينادى مع بقية المتهمين ليصل النبا إلى الجيران ؟ ويمضي فولتير في التليل على بطلان الإدانة مستعينا بأسلوبه المشير وقوته الغلابة على إيقاظ المشاعر وتحويل العواطف إلى حيث يريد . وكان فولتير قد



سعى إلى الأرملة التعيسة وأقنعها بالسفر إلى باريس ، حيث خف لنصرتها  
كبار المحامين وأحسن الجمهور استقبالها .

وسرعان ما آتت دعوته أكلها واتصل به فردريك الأكبر ملك  
روسيا ، وكاترين قيصرية روسيا ، وغيرهما ممن انتصروا لدعوته وشدوا  
بالمال أزره ، حتى تقرر أن يعاد النظر في القضية بعد عام من صدور الحكم فيها ؛  
ثم قرر برلمان باريس بإجماع الآراء براءة الأب كالا وأسرته بعد ثلاثة  
أعوام من إعدام هذا المسكين !.. ومنح الملك معاشا لهذه الأسرة التعيسة  
يقدر بثلاثين ألف فرنك ، ولخادمها العجوز ثلاثة آلاف فرنك ! وكان  
كل هذا على كره من برلمان تولوز الذي قرر الإدانة من قبل ورفض  
الاعتراف بالبراءة بعد !..

### دفاع فولنير في مسألة سيرفين

كان مثل هذا الجور الظلوم في ذلك العصر كثيرا ، فلم يكن غريبا أن تتكرر  
المأساة في نفس العام ، وأن تسير إجراءات الإدانة على النحو الذي سارت فيه  
الإجراءات في قضية كالا . ذلك أن كاثوليسكية كانت تخدم عند أسرة سيرفين  
Sirven التي كانت تدين بمذهب الهوجونوت ، فهدت هذه الخادم لابنة  
سيرفين أن تفر إلى دير عذبت فيه عذابا ألما لتتخلى عن مذهبها البروتستانتي  
وتعتنق الكشلكة دينا ، فلاذت الفتاة فرارا وانتحرت غرقا في بئر ! فاتهم  
أبوها بإغراقها ليحول دون ارتدادها عن دينها !.. وصدر حكم بإعدامه مع

زوجته وبنى ابنتيه الآخرين ومصادرة أملاك الأسرة...! فانطلقت الأسرة فارة من وجه القضاء وولت وجهها شطر سويسره ، حيث أقنعت فولتير بمرامتها .

ولبت فولتير تسع سنوات يناضل لإعادة التحقيق في هذه القضية حتى كلل مسعاه بالنجاح ، وكان دفاعه في هاتين القضيتين وفي غيرهما مشار الإعجاب والتقدير .

### مفيدة التسامح عن فولتير

اضطرم القرن الثامن عشر بروح النقد الهدام الذي أتى على سوءات المجتمع ومساوىة الكنييسة ، وكان طبيعيا لرجل عصبي المزاج حاد الطبع - كفولتير - أن يتزعم حركة هذا النقد الهدام ، ووقف الكثير من جهوده على مهاجمة التعصب ونصرة التسامح ، فلم يكتب رساله أو مسرحية أو قصة أو قصيدة أو مؤلفا في التاريخ ، إلا شاد فيه بالتسامح وندد بالتعصب البغيض .

وقد رد فولتير جريمة التعصب إلى إيمان الناس بوجود دين منزل . . . ١١ ورأى أن هذا الدين قد صدرت عنه تقاليد وعقائد آمن الناس بها وهي لا تتصل بالفضيلة ولا تمت للعلاقة القائمة بين الناس بسبب من الأسباب ١ ومن هنا كانت حملاته على الدين الذي نزل به الوحي وتبشيره بالدين الطبيعي ، دين العقل الذي يدفع الضمير إلى الشعور بوجود كائن أعلى يحثنا على مزاوله الفضيلة دواما .



كان طبيعياً بعد هذا أن يهاجم في كل كتاباته رجال الدين في غير رفق ولا رحمة ، وتمشيا مع مذهبه هاجم الإسلام في مسرحيته عن «النبي محمد أو التعصب» ١٧٤٢م واتهم النبي عليه الصلاة والسلام بالتعصب لأنه عزادينه الى الوحي الإلهي !.

ولعل هذا يفسر لنا السر في إعجاب فولتير بحكيم الصين «كونفشيوس» ، الذي قنع بالتبشير بوجود كائن أعلى ، ونادى بالعمل بما تلميه الفضيلة وتوحي به الأخلاق ، دون أن يتجاوز هذا الى الادعاء بأنه رسول يحمل رسالة إلهية عليه أن يبلغها إلى الناس ! وقد عرفت هاتان العقيدتان - الكائن أعلى والأخلاق الفاضلة - منذ عشرات القرون قبل ميلاد المسيح - عند الشعوب العريقة في القدم ، وليس كل دين إلا مرحلة في تاريخ الأديان ، إنه يمثل حلقة في سلسلة تطورها ، والعالم أسرة واحدة يمكن أن تتحيا في جو من التسامح والوثام ، متى قنعت بالاعتقاد بوجود كائن علوي ، وزاولت الفضيلة واعتنقتها مبدأ في كل ما تباشر من أعمال

في الحق إن تعصب فولتير لأفكاره وسهملاته اللاذعة الساخرة على من خالفوه رأيه ، لشاهد عدل على تعصبه وحاجته الى التسامح .. (١)

موقف روسو من الاضطهاد

وقد كان جان جاك روسو يحس بشرور الاضطهاد الديني كما يحس بها

(١) Lotfy Fam, Etude et traduction de "Candide" de Voltaire 1938

وقد نشرت الترجمة وحدها

فولتير ، ولكنه نشأ في جنيف وتشبع فيها بتقاليد كلفن ، وبدأ أثر هذا في الحكومة المثالية التي تصورها ، إذ أنها لا تمتاز على أية حكومة تيوقراطية دينية ، والدين المدني الذي اقترح فرضه على الناس ليس أكثر من مسيحية غير متعسفة ، وقد آثر الإبقاء على بعض المبادئ الجوهرية في الدين المسيحي - كالإيمان بالله واليوم الآخر - وفرضه على الناس عنوة واقتدارا ، ومن أبي الإذعان لها كان مصيره النقي ١ وكان هذا في وقت لم تراول فيه تجربة التسامح المطلق .

وقد كان روسو طبيعيا مؤلما ، ومن هنا كان إيمانه بالله ، وإنكاره اللاهوت والوحي المنزل ، فأحرق كتابه في باريس وصدر أمر باعتقاله ، فلأذفرارا ولبت شريدا طريدا حتى حط رحاله في إمارة « نيف شاتل » حيث وقاه شر المتعصبين فرديريك الأكبر ، الحاكم المتسامح الوحيد في ذلك العصر ، ولكن روسو اتهم بالهرطقة فولى وجهه شطر إنجلترا عام ١٧٦٦ ثم غادرها الى فرنسا وأقام بها حتى قضى نحبه . .

ومن هذا نرى أن الرغبة في الاضطهاد لم تكن مقصورة على الجماهير وحدهم ، بل امتدت إلى كبار المفكرين وكان لها أثرها في كتاباتهم . . .

### التسامح المطبق في الثورة الفرنسية :

وقد أقبلت الثورة الفرنسية تحمل التبشير بالتسامح ، فجاء في إعلان حقوق الإنسان في عام ١٧٨٩ Declaration of Rights ألا يضار امرؤ



بسبب آرائه الدينية ما لم يترتب عليها إضرار بالنظام العام ، وبقيت الكاثوليكية الدين السائد في الدولة ، وسمح للبروتستانت دون اليهود أن يشغلوا الوظائف العامة . فكانت هذه خطوة نحو التسامح بمعناه الصحيح .

بل غلا أحرار الفكر في دعوتهم فاحتج ميرابو - أعظم سياسي فرنسي في عصره - احتجاجا صارخا على استخدام كلمة التسامح ، والدين «السائد» ، في مجال التعبير عن حقوق الإنسان ، لأن لفظ التسامح يوحي بنوع من الاستبداد ! إذ أن السلطة التي تملك التسامح تملك حرمان الناس منه !

وتردد هذا الاحتجاج في كتاب توماس بين Thomas Paine الذي صدر بعد ذلك بعامين ، إذ يقول إن لفظ التسامح لا يصاد التعصب ولكنه لفظ مقلد مزور له ، كلاهما تعسف واستبداد ، لأن احدهما يدعي لنفسه الحق في حبس حرية الضمير ، والثاني يدعي لنفسه الحق في منحها للناس . . . !

وإذا كانت الثورة الفرنسية قد بدأت بمبشرة بالحرية الدينية ، فسرعان ما سقطت هذه الحرية في عباب التمرد على الحكومة ، ومضى الناس بعد الملكية التي تداعت أركانها ( ١٧٩٢ - ١٧٩٥ ) يدعون إلى نبذ المسيحية و يبشرون بعبادة العقل . . . !

وفي دستور عام ١٧٩٥ انفصلت الكنيسة عن الدولة فكفل هذا حرية العبادات لجميع العقائد واستخف الناس بالكاثوليكية ورجاها .

ولكن نابليون قد أقر للكاثوليكية نفوذها مع بقاء التسامح مع غيرها

من المذاهب .

وصفوة القول في هذا النزاع الذي ثار في فرنسا بين معسكر الرجعيين ومعسكر الأحرار ، أن نمو الحرية الدينية كان يتعارض مع الكنيسة ويتنافى مع روحها وأن انتصاره كان الشاهد العدل على اضمحلال نفوذها .

وقد حاول البعض تحت قيادة لامنيه Lamennais أن يربطوا في القرن الغابر بين المذهب الكاثوليكي والمدنية الحديثة ، فضاقت بحركتهم البابا جريجوري السادس عشر وأصدر في عام ١٨٣٢ منشوره الذي حمل فيه على الدعوة لحرية الضمير وحرية النشر ونحوها ، وهاجم أتباعها في غير رفق ولا هوادة

مغزى تاريخ الفساح في إنجلترا وفرنسا .

ومن كل ما أسلفناه نلاحظ أن روح التعصب قد بلغت أشدها في كنيسة روما وغيرها من كنائس المصلحين من البروتستانت وأن مرجع الفضل في اضمحلال هذه الروح عند الكاثوليك والبروتستانت على السواء ، إلى قيام المذهب العقلي وشيوع القول بكفاية العقل وقدرته على الفهم والتعليل ، وأن المتزمتين من رجال الدين - في الكاثوليكية والبروتستانتية على السواء - هم الذين تصدوا لمقاومة المدنية ومناهضة تعاليمها ومبادئها ، وقد صمدوا لأداء هذه المهمة ولم يتخلوا عن سلاحهم في الميدان إلا بعد سلسلة من الفسنت والثورات شنها خصومهم وأتوا فيها على نفوذهم ، بل بعد أن بدد نور العلم ظلام الجهل والحقد والتعصب .



## انتصار التنوير الديني في روسيا في القرن الثامن عشر

فإذا انتقلنا إلى ألمانيا في ذلك القرن - الثامن عشر - طالعنا الحرية الدينية وقد انتصرت على يد حاكمها الحر فردريك الأكبر ؛ ذلك أن حرب الثلاثين في القرن السالف - السابع عشر - قد انتهت - على ما عرفنا - بنوع من التنوير الضيق تم فيه الاعتراف بالكاثوليكية والبروتستانتية - من لوثرية وكلفنية وزونجالية - واستبعد ما عداها من مذاهب ، وأتيح للأمرء - على ما جرى عليه العرف في ذلك العصر - اختيار ما يروقهم من العقائد وفرضه في إماراتهم مع التنوير بقيام غيره إلى جانبه أو عدم التنوير في ذلك - حسب مشيئة الأمير ؛ ولكن رجال القانون والآداب وغيرهم من المفكرين قد انصروا لمبدأ التنوير ، ومهدوا الطريق الذي يسلم إلى اعتناقه ، فلما ولي فردريك الأكبر عرش روسيا ، تلقى بعد بضعة أشهر من حكمه ( ١٧٤٠ م ) بياناً رسمياً بصدد قضية دينية فكتب على هامشه يقول : إن من حق كل امرئ أن يصل إلى الجنة بالطريقة التي يتروقه .. وأن في وسع الإنسان أن يكون مواطناً صالحاً ، أيا كانت العقيدة التي يدين بها .. وليس للدولة عنده أكثر من ذلك ؛ فكانت هذه وثبة في مجال التنوير لا تصدر إلا عن رجل واسع الصدر متزن العقل . وبهذا استقرت الحرية الدينية المطلقة على يد هذا الحاكم الحر الذي اتصلت بينه وبين فولتير روابط الصداقة ، وشمل التنوير المذاهب المسيحية كلها . بل وخطر لهذا الحاكم الحر أن يأذن للمسلمين بالهجرة إلى مملكته ؛ وتأيدت هذه المبادئ في دستور روسيا عام ١٧٩٤ ، وقيه تحققت حرية الضمير المطلقة في المذاهب الرئيسية في

المسيحية ، وهي المذهب اللوثرى والإصلاحى والكاثوليكي - وتساوت كلها في الحقوق والامتيازات .

أثر ألمانيا في غيرها من الدول :

وقد حدثت الدويلات الألمانية حذو بروسيا بقرار صدر في عام ١٨٠٣ م وسرعان ما بسطت الحرية الدينية جناحها على ربوع ألمانيا كلها ، قبل أن تنشأ الامبراطورية الألمانية الجديدة ( في عام ١٨٧٠ م )

وشاع هذا الروح الطيب في النمسا في عهد الامبراطور يوسف الثاني - وإن كان التسامح الذي أقره في أواخر القرن الثامن عشر منقوصاً غير كامل ولكن أثره كان محموداً في الولايات النمساوية في إيطاليا ، لأنه مهد لقبول فكرة التسامح عند أهلها بعد ، وكان طريفاً أن ينهض بالدفاع عن قضية التسامح فيها إبان القرن الثامن عشر أحد رجال الكهنوت من الكاثوليك ، وهو تامبوريني Tampurine وقد أذاع تحت اسم مستعار كتاباً فصل فيه بين الكنيسة والدولة وناهض الاضطهاد وندد بمحاكم التفتيش ، وجهر بمنافاة سياسة القمع لمبادئ العقيدة المسيحية ... وإن كان على اتفاق مع جون لوك في أن الإلحاد أثم يستحق العقاص .

وأخذت الحرية الدينية تنسل إلى الإمارات الإيطالية الناشئة شيئاً فشيئاً حتى ضاقت الكنيسة بهذا الروح الجديد ، ونهض البابا جريجورى السادس عشر في عام ١٨٢٢ بمقاومة الروح الجديد بمنشور عام على ما أشرنا منذ حين ، ثم عقب البابا بيوس التاسع بمنشور أصدره في عام ١٨٦٤ وجسرى



فيه على النهج الذي رسمه سلفه . . ! وفاجأ مجلس الفاتيكان العالم بقرار أعلن فيه عام ١٨٧٠ أن البابا معصوم من الخطأ .. (١)

### قيام الحرية الدينية في أوروبا في القرن الغابر :

وفي القرن الغابر ، استقرت الحرية الدينية في أوروبا ، وشمل التسامح أبناء الأمة الواحدة وبرئت حياة الناس مما كان يؤدي إليه تعصب المتزمتين من وجوه الاضطهاد والتعذيب ، وأتيحت وظائف الحكومة ويسرت أسباب التعليم في المدارس ، وطرحت نيابة المجالس لأبناء الأمة الواحدة وقد كانت إلى الأمس القريب وقفا على أتباع الحكومة ، وذاعت الحرية الدينية وساب الحكام حقهم في أن يفرضوا على رعاياهم اعتناق الدين الذي يدينون به .

ولكن اليهود ظلوا موضع اضطهاد في أكثر بقاع العالم المسيحي ، بيد أن اضطهادهم في القرن الغابر كان مرده إلى أسباب سياسية واجتماعية وليست دينية ، وقد خضع اليهود للاضطهاد والعسف في وسط أوروبا وشرقها ، وكانوا مشار السكراهية والحق في ألمانيا في القرن الحاضر بوجه خاص .

تطورت أسباب اضطهاد اليهود في القرن الحاضر فأضحت اجتماعية أكثر منها سياسية أو دينية ، فلنقف لبيان هذا الاضهاد وقفة قصيرة :  
في القرن الغابر صرح رينان Renan وغيره بالانفارقة بين الساميين والآريين

(١) انظر الفصل الاخير من كتابنا « قصة النزاع بين الدين والفلسفة »

واكتملت نظرية الخصومة السامية Anti Semitism التي كانت ترمى إلى اضطهاد اليهود وسلبهم الكثير من حقوقهم السياسية والاجتماعية ، جزاء وفاقا على ما اتصفوا به من نقصان العاطفة الوطنية والجشع والتعصب الجنسي والشغف بالمال ونحوه ، فنسبوا إليهم تدمير الكوارث المالية والأزمات التي تصيب الشعوب ومن هنا كان اضطهادهم في وسط أوروبا وشرقيها .

وقد نهضت حركة العداوة في فرنسا لنفس الأسباب التي أدت إليها في غيرها من الدول ، وقواها إفلاس شركة بناما التي أنشأها دلسيس ، ثم اتهام الضابط اليهودي ألفرد دريفوس A. Dreyfus بإذاعة أسرار الوطن الحربية إلى ألمانيا ، واستمرت هذه القضية اثني عشر عاما أشعلت فيها نار العداوة وزادت الخصومة وقدة واشتعالا ، ونشط اليهود من ناحية أخرى لمقاومة هذا التيار الجارف في عداوته لهم ، فنهض بعضهم بالحركة الصهيونية التي تهدف إلى إقامة وطن قومي لليهود .. في فلسطين .. وزاد اليهود تضامنا واتحادا (١) .

وهكذا كانت أسباب اضطهاد اليهود أخيرا ، أثارت مطامعهم غضب الشعوب واستفز تعصبهم الجنسي الحق ، وأيقظت سيطرتهم على المال وهيمنتهم على الحكومات الحقد في الصدور وأصبحت الصهيونية مثار القلق في العالم العربي كله ، وأحالت بقية عطفه على بني إسرائيل سخطا يجتاح النفوس .

(١) كان فيلوت الفيلسوف الاسكندردي + ٥٠٠م أكبر مفكري اليهود في عصره يستبعد من اليهودية كل طموح سياسي ، لأن اليهودية في عرفة دين وإيست جنسا ، وحسب اليهودي ان يكون مواطنا في البلد الذي يقيم فيه .

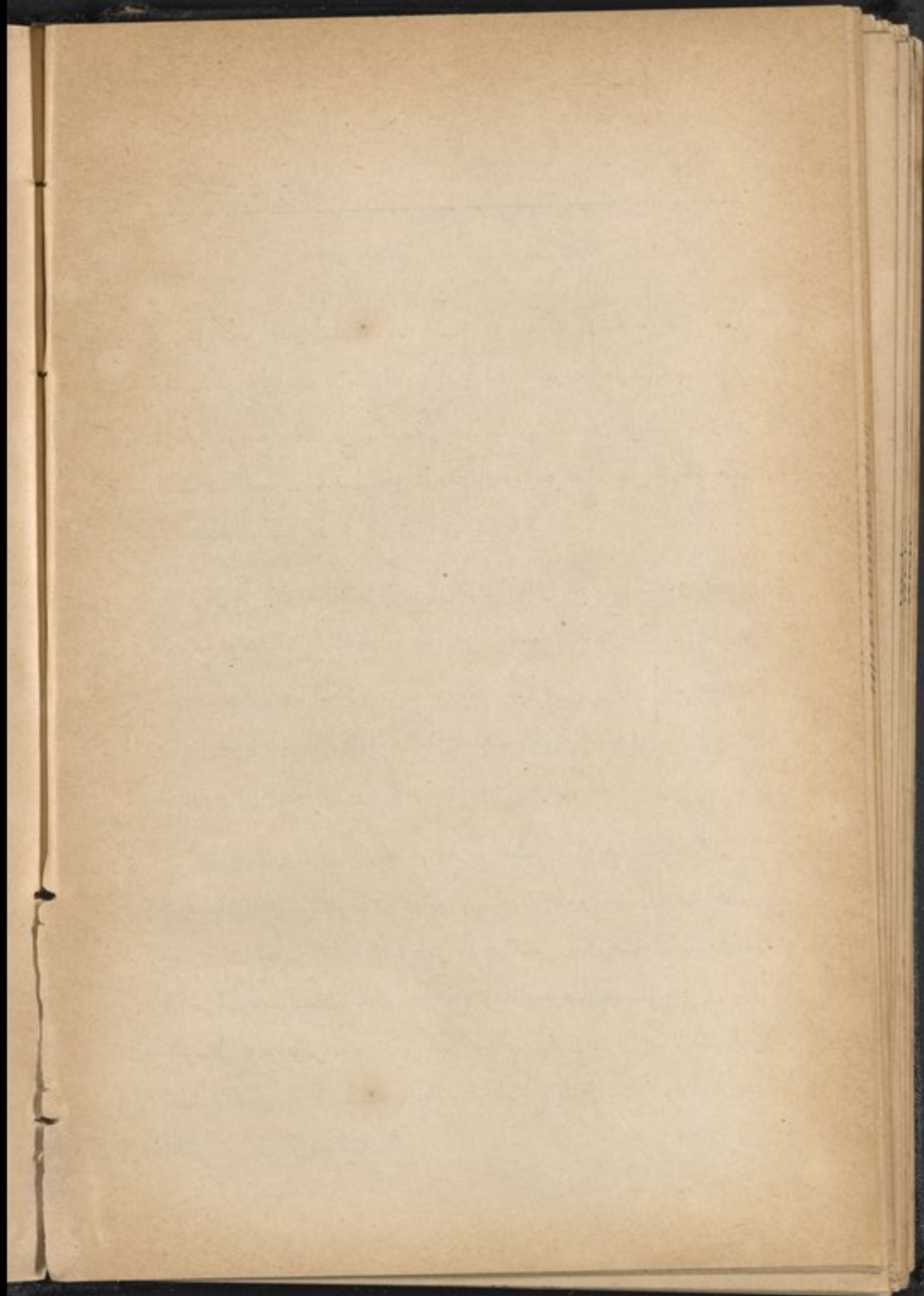


## تعقيب

على النحو الذي أسلفناه نشأ التسامح عن حركة الإصلاح الديني مع تعصب أهلها ونزوعهم للاضطهاد، وابتدع الحرية الدينية الصوصية ومن الهم من كانوا موضع سخط من الكنيسة وخصومها من المصلحين على السواء، وكان للشك عند أصحاب المذهب العقلي أثره الفعال في زعزعة الأسس التي قام عليها الاضطهاد، وتمهيد الطريق لقبول الناس لفكرة التسامح.

وكان من الظواهر الملحوظة، أن تسبق إنجلترا البروتستانتية في مضمار التسامح فرنسا الكاثوليكية، وأن يظل كابوس التعصب البغيض جاثماً على صدرها حتى تندلع ثورتها الكبرى، وتحطم القيم المعروفة في رموس الفرنسيين. وبفضل حاكم كبير القلب واسع العقل تحققت الحرية الدينية في أكمل صورها في روسيا قبل غيرها من دول العالم

بل إذا كان القرن الغابر قد أقر الحرية الدينية من الناحية الشكلية فإن التعصب لم يتخل عن نفوذه في نفوس الساسة والزعماء والناس إلى وقتنا الحاضر وسنرى في الفصل التالي كيف نص الوفد المصري في هيئة الأمم المتحدة في أخريات عامنا المنصرم (نوفبر ١٩٤٦) على مقاومة هذا التعصب البغيض في أورو بالوسطى بوجه خاص. ومن أجل هذا آثرنا أن يكون عنوان فصلنا هذا «فجر التسامح الديني». . . لأن التسامح المطلق الكامل لم يشرق بعد، وإن كان من المحقق أنه آت لا ريب فيه.





الإسلام والاضطهاد

1840



## الاضطرهاد في الإسلام

بواعث الاضطهاد في الإسلام - معني الزندقة في الإسلام - قشور الزندقة في العصر العباسي -  
اضطهاد المهدي والهادي للزندقة - اضطهاد الزنادقة بعد الهادي - استئصال القرامطة -  
مذبحة الشيعة - من آثار الجود في العصر الحديث - تمساح من شكوي الامام - الجود في  
وقتنا الحاضر - اتهام الفاروق باضطهاد الذميين - الاستشهاد في القرآن الكريم - الاستشهاد  
عند رسول الله - حب المؤمنين للاستشهاد في سبيل الله - القتال المباح في الإسلام - الجهاد في  
الإسلام - الحرية في الإسلام - موقف الإسلام من الذميين - سماحة الفاروق مع المسيحيين -  
أسباب ما أسلفناه من وجود الاضطهاد - تعقيب .

### بواعث الاضطهاد في الإسلام:

عرف الإسلام - كما عرف غيره من الأديان - غلاة المتزمتين من  
المؤمنين ، ولكن التعصب - فيما أشرنا من قبل - لا يفضي إلى الاضطهاد الدامي  
إلا متى أيدته سلطة دنيوية تمسك أهل التزمت من إيذاء خصومهم . والإسلام  
لا يقر لأحد رجاله بسلطة يبسطها على غيره من أتباعه ، ولا يخص أحداً - بالغنا  
ما بلغت مكانته - بتأويل نصوصه أو بالقدرة على غفران ذنوب ارتكب ، إذ  
ليس لأحد فضل على أحد إلا بالتقوى ، وقد خطب أبو بكر يوم بويح بالخلافة  
فقال : أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله فلا طاعة لي عليكم ! بل  
ليس رسول الله إلا مذكرا ومبلغا ، لا ميطرا ومهيما ، فذكر إنما أنت

مذكر ، لست عليهم بمسيطر ، ، وقد فصل أئمة الدين في بيان ذلك . (١)

هذا من الناحية الشكلية ، أما الذي حدث بالفعل فهو أن بعض رجال السلطة الزمنية في الاسلام قد استجابوا في بعض مراحل تاريخه لتزمت المتعصبين من أهله ، أو انقادوا لتعصبهم الذميم أو لحرصهم على مصالحهم أو لرغبتهم في تملق الطبقات الدينية و! اكتساب مرضاة الجماهير ، وانطلقوا باسم الدين الى قتال بعض الطوائف والفرق الدينية ومناهضة رواد الفكر الحديث ومقاومة كل خارج على تعاليم الإسلام . . . ومن هنا دخلت السياسة وتولت باسم الدين - في كثير من الحالات - اضطهاد الاحرار (٢) ، فكانت مذابح وحروب قيل أنها تشبه من بعض الوجوه ما عرفته المسيحية من مذابح وحروب ، وإن لم تصدر مع قلة عددها وخفة تبعاتها - عن سياسة دينية أو مذهبية منظمة ترمى الى قمع الزندقة وتهدف الى التثكيل بكل من جنح عن تعاليم الإسلام

وقد اتخذت الزندقة صوراً كثيرة حسبنا أن نشير الى أظهرها :

#### معنى الزندقة في الاسلام .

باستقراء ما كتبه ابن السديم والخياط وابن قتيبة وغيرهم ، نلاحظ أن الزندقة كانت تطلق على المانوية الذين كانوا يردون العالم إلى مبدأين ها

(١) انظر ذلك في كتابنا الشعرا في امام التصوف في عصره من ٨٢ - ٨٣ وفي كتابنا التصوف في مصر في ايام العصر العثماني من ٢٢٢ - ٢٣ وفي كتابنا قصة النزاع بين الدين والفلسفة من ١٣١ - ٣٢ .

(٢) في كتابنا قصة النزاع بين الدين والفلسفة فصل -١٠٥٥ عن موقف الاسلام وفقهائه من التفكير الفلسفي .



النور والظلمة، عن أولها صدر الخير وعن ثانيها نشأ الشر، ويحرمون الزواج طلبا لفناء الدنيا ويدعون إلى الزهد... إلى آخر ما هو معروف عن مذهبهم. ثم أطلقت الزندقة بعد هذا على الإلحاد بوجه عام، وكانت تعبرا عن الدهرية القائلين ببقاء الدهر. (١)

والملاحظ أننا لا نجد لفظ الزندقة في العصر الأموي إلا قليلا، ولكن الزندقة قد شاعت في أوائل العصر العباسي واستفاضت أنباؤها، إذ كان البحث العلى الذي يقترب في العادة بالشك والإلحاد أظهر في ذلك العصر منه في العصر الأموي، وهذا بالإضافة إلى أثر الفرس في نشر المانوية والزرادشتية والمزدكية. بل لقد اختلفت معاني الزندقة باختلاف الناس في ذلك العصر. فأطلقها العامة - في عهد جعفر المنصور - على الاستهتار والمجون والتدرج إلى الخروج عن الدين أحيانا بألفاظ نارية، ثم المغالاة في ذلك لمجرد التطرف، وكانت تطلق عند الخاصة على الذين يدينون بدين المجوس باطنا - ولا سيما المانوية - ويعتقون الإسلام تقية أو توسلا إلى إضلال الناس. وقد يظهر الزنادقة سافرين لا يكلفون أنفسهم مشقة التظاهر بالدين - كما يلاحظ عند أتباع دين المجوس.

وقد كان من معاني الزندقة الإلحاد الذي يتأدى بأصحابه إلى جحود

(١) أحمد بك أمين: فجر الإسلام ص ١٤٧ - ٢٩ طبعة ثانية - وانظر مادة زندقة للمشرق ماسنيون في دائرة المعارف الإسلامية.

الأديان جميعا ، وكانت الرغبة في التخلص من تكاليف الدين من بواعث انتشارها بين المجان والمستهترين .

### فسو الزنرق في العصر العباسي

وقد كانت حركة الزندقة والإيمان - فيما يقول الأستاذ الجليل أحمد بك أمين - في قتال مستحرم ، استخدمت فيه وسائل الحروب من خدع ومكائد ووسائل سرية ولجوء إلى السيف وسفك للدماء أحيانا ، وعقد مجالس ومقارعة بالحجج أحيانا ثم الحرب سجال ، يوم ينتصر فيه الملحدون بما يثيرون من شكوك وأوهام ، وبما يضللون من ناشئة وشبان ، فإن عجزوا ظاهرا استعملوا طرق الغواية سرا تحت مظهر التشيع أو الغيرة على الاسلام أو نحو ذلك ؛ ويوم ينتصر فيه المؤمنون فينكلون بالملحدين تنكيلا ، ويوقعون بهم قتلا وتشريدا ، ثم بما يؤلفون من كتب ينقضون شبههم ويبطلون حججهم .

### اضطهاد المهدي والرهادي للزنرق

وقد وقعت أظهر حركات التنكيل بالزنادقة في عهد المهدي ، إذ عين رجلا وكل إليه أمرهم ، هو عبد الجبار المحتسب صاحب الزنادقة فسيما ورد في الأغانى ، فأمر بسجنهم وإعدام بعضهم وإبادة كتبهم او قد أمعن في قتل الملحدين الذين ظهروا في أيامه وأعلنوا اعتقاداتهم في خلافته ، وكانت هذه أول مرة عين فيها رجل يوكل إليه البحث عن الزنادقة والتنكيل بهم ، وكان المهدي أول من



أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين ، أى أنه نظم دارا للبحث عنهم ومحاكمتهم ، وكون هيئة عليه لمناظرتهم وتأليف الكتب في تفنيد أدلتهم ودحض مزاعمهم .

عقبا على  
أهل البدع

وقد نصح ابنه الهادي في متابعة سياسته في التنكيل بهم قائلا : يا بني إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة - المانوية - فانها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن - كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للأخرة - ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تخرجها وتحوبا ، ثم تخرجها إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاعتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق ، لتتقدم من ضلال الظلمة إلى هداية النور ؛ فرفع فيها الخشب وجردها فيها السيوف ، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له ، فإنى رأيت جدك العباس في المنام قلدى بسيفين ، وأمرنى بقتل أصحاب الاثنتين . فقال موسى ( ابنه الهادي ) بعد أن مضت من أيامه عشرة أشهر : أما والله لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عينا تطرف . ويقال إنه أمر أن يهيا له ألف جذع ، فقال هذا في شهر كذا ومات بعد شهرين .

وقد نفذ الهادي وصية أبيه وقتل من الزنادقة الكثيرين . وبلغ الاضطهاد أقصى مظاهره بين سنتي ١٦٦ و ١٧٠ هـ ، إذ كان الزنادقة يؤخذون بالظنون والريب ، وكانوا إذا كبروا وأبوا المدرك عن زندقتهم أعدموا .

## اضطهاد الزنادقة بعد الرهادى

وقد سلك هارون الرشيد مسلك سلفيه من الخلفاء ، فتعقب الزنادقة مع أنه أمن من كان هاربا أو مستخفيا . وتابعه المأمون فكان يمتحن الزنادقة الذين اتهموا باعتناق المانوية فيأمرهم بأن يتفلوا على صورة ماني ، أو غير هذا مما يكشف عن حقيقة عقيدتهم ، فان أبوا أمر بإعدامهم (١) .

وقد بلغ الإلحاد ذروته في القرن الثالث عند ابن الراوندى ، وتحول عنده إلى مذهب عقلى يقوم على إنكار النبوة ومهاجمة الوحي وتمجيد العقل ونقد المعجزات وإعجاز القرآن والتواتر كمصدر للمعرفة . وبدا مثل هذا الإلحاد عند زكريا الرازى فى تمجيد العقل ونقده للأديان كلها ومهاجمته للكتب المقدسة وإعجاز القرآن والقول بكفاية العقل لهداية الإنسان .. الخ (٢) .  
وإذن فقد وقعت فى بعض مراحل الإسلام أوان من الاضطهاد ، وفى ذلك تساق بعض الشواهد :

## استئصال القرامطة

فشئت الزندقة فى مطلع القرن الرابع على يد القرامطة الذين زعم شيخهم

(١) لحصنا الزندقة فى العصر العباسى عن الفصل السادس من الجزء الاول من ضحى الاسلام - طبعة ثانية - للإستاذ الجليل احمد بك امين - وقد اعتمد فى بحثه للزندقة على الاغانى والطبرى والمصعودى والمقد الفريد وغيره .

(٢) انظر فى تفصيل هذا : من تاريخ الالحاد فى الاسلام لزميلنا الدكتور عبد الرحمن بدوى ( ١٩٤٥ )



- فيما يروى أبو الفداء الحموي - أنه داعية المسيح وأنه الكلمة وأنه ابن الحنفية وأنه جبريل وأنه المسيح يصور في جسم انسان ، وقال له انك الداعية وانك روح القدس ... وقد جعل قلبته بيت المقدس ، والصلوات أربع ركعات ثنتين منها قبل طلوع الشمس وثلثين قبل غروبها ، وأحل الخمر ... الخ وكثر أتباعه وغزوا مكة ، وفتحوا دمشق الشام واستولوا على الكوفة ، وكان منهم الراوندي - الذي أسلفنا ذكره منذ حين - ويقول ابن الأثير إنهم سموا بعد ذلك بالإسماعيلية أو الباطنية ، وقد فشى مذهبهم في بلاد الفرس واستولوا فيها على كثير من الحصون والقلاع ، فطوردوا رغبة في استئصالهم واشتد حصار بعضهم في قلعة على كذب من أصبهان ، فكتبوا فتوى للسادة الفقهاء أئمة الدين عن رأيهم في « قوم يؤمنون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن ما جاء به محمد (ص) حق وصدق ، وإنما يخالفون في الإمام ؛ هل يجوز للسلطان أن يقبل طاعتهم ويحرسهم من كل أذى ؟ ، فأجاز أكثر الفقهاء ذلك وتوقف عنه بعضهم ، وقال أبو الحسن على السمنجاني : « يجب قتلهم ولا يجوز إقرارهم ، ويجب أن يقال لهم : أخبرونا عن إمامكم إذا أباح لكم ما حظره الشرع أو حظر عليكم ما أباحه الشرع ، أتقبلون أمره ؟ فإنهم يقولون نعم ، وحينئذ تباح دماؤهم بالإجماع ، واستطال الجدل بينهم ولسكنه انتهى بإبادتهم جميعا .

مذبحة الشيعة

وقد روى ابن الأثير وقوع مذبحة للشيعة عام ٤٠٧ هـ ، إذ قتل منهم كثيرون

وأحرقوا بالنار ونهبت ديارهم وقتلوا في جميع إفريقيا ، واجتمع جماعة منهم أمام قصر المنصور - الفاطمي - قرب القيروان ، فحصرهم العامة وضيقوا عليهم حتى اشتد عليهم الجوع ، فصاروا يخرجون والناس يقتلونهم حتى قتلوا عن آخرهم ، ولجأ من كان منهم بالمهدية إلى الجامع فقتلوا كلهم !

وأكثر الشعراء من ذكر هذه المأساة ، بين حزين يؤذيه قسوتها ، ومبتهج يستخفه أمرها ! ويعلق المرحوم فرح أنطون على هذه الحادثة بقوله إنها شديدة بمذبحة سان بارثليميو !! .

#### من آثار الحمود في العصر الحديث

والمعروف أن الاضطهاد قد تسبقه مرحلة جمود وتزمت ، يضيق فيها الناس بكل جديد لم يألفوه من قبل ، وقد يبادرون باتهام أهله بالمروق والكفر وعندئذ يكون الاضطهاد ، إذ كثيرا ما تستجيب السلطات المدنية لمشاعر الجامدين وتنكل بكل من جنح عن القديم المألوف ، أو تضيق عليه الخناق على أقل تقدير - وهذا نفسه مظهر من مظاهر الاضطهاد - وقد نزل الجمود بالمسلمين وأقام بينهم طويلا ، وكان مثار الشكوى عند رواد الفكر الحديث والمستنيرين من أئمة الدين على السواء ، ومهد هذا الجمود لإغراء الجماهير بالتضييق على رواد الفكر ومطاردتهم وإثارة الفرع في نفوسهم ، حتى تسكت أصواتهم ويكفوا عن محاصمة ما ألف الناس ! وقد شكى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده من



ذلك كثيرا وساق أمثلة وقعت في عهده حسينا ذكر بعضها والأمثلة وان كانت فردية إلا أنها تشير الى الروح الذي كان يهيم على المعسكرات المحافظة في ذلك العصر ، وتنبؤ عن مدى ما اعتراها من جمود ، ومبلغ ما كان يخامرها من نزوع للاضطهاد ، وهو نزوع كان يمكن أن يشتد بأسه وتسوء مغبته ، لو أنه اقترن بسلطة زمنية تمكن أهله من تحقيقه :

### نماذج من شكوى الامام

فمن ذلك أن مسلما في غير مصر قد كتب بضع مقالات في الاجتهاد والتقليد ذهب فيها إلى ما ذهب إليه كافة أئمة المسلمين ، ونشر مقالا عن مذهب الصوفية صرح فيه بأن الإسلام لم ينتفع به بل رزى به أو ما يقرب من ذلك - وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبل . فلما نشرت في مصر تحت اسمه مقالاته ، هاج حملة العمام ، وسكنة الأثواب العباغب ، وقالوا إنه مرق من الدين أو جاء بالإفك المبين ، ثم رفع أمره إلى الوالي ، فقبض عليه وألقى به في غياهب السجن ! ولم يعف عنه إلا بعد أشهر !

ووضع السنوسى - والد السنوسى صاحب جغبوب - كتابا في أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية ، وصرح في كتاب له أنه يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة ، وأنه قد يرى ما يخالف رأى مجتهد أو مجتهدين ، فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية - رحمه الله تعالى - وكان المقدم في علماء الأزهر الشريف ، فحمل حربته وطلب الشيخ السنوسى ليطعنه بها ، لأنه

خرق حرمة الدين واتبع غير سبيل المؤمنين .. ولكن الله قد وقاه شر هذه الجريمة ، إذ غادر القاهرة قبل وقوعها ..!

ونشر بعض علماء الأزهر مقالات مسببة يستهجنون فيها إدخال علم الجغرافيا في مناهج الدراسة في الأزهر ، ويعرضون بمن أشار بإدخالها ويطعنون في عرضه !

وعلماء الأفغان والهند والعجم - فيما يقول الإمام - على تمسك بالقديم شديد ، ينهضون لمحاربة كل من حاول أن يخرج بهم قليلا عما ألفوه مما كان عليه أسلافهم ، بل كانت تغالى حكومة المغرب حتى تعاقب بئتر بعض الأعضاء لمن ارتكب شرب الدخان ! أو بالقتل من أجل « كلبسة ينكرها السامعون وإن أجمع عليها المسلمون الآخرون ، ١١

وكان المتوقع أن يثور اضطراب الأزهر متى أشار أحد بدراسة مبادئ الطبيعة أو التاريخ الطبيعي ، فتقوم « قيامة المتقين ويصبحون أجمعين أكتمين : هذا عدوان على الدين ، هذا توهين لعقده المتين ، هذا تغرير بأهله المساكين .. » (١) .

### الجمود في وقتنا الحاضر

وقد تردد صدى هذه النعمة بعموت الإمام ، في موقف الأزهر الشريف من

(١) محمد عبده : الاسلام والنصرانية ص ١٣٠ وما بعدها .



كتاب الشعر الجاهلي، وكتاب «الإسلام والحكم في مصر»، وقد لقي المؤلفان الكثير من المتاعب من جراء ذلك (١)، بل لبث الاتهام بالكفر قائماً إلى عهد قريب ولعل آخر عهدنا به كان يوم وجه على صفحات الأهرام للتهديد بلجنة جامعية تشكلت لتيسير قواعد النحو على طلاب المدارس فيما أذكر أو كان لأحد أعضائها رد رصين متزن أسدل الستار على هذه الضجة.

وفي الحق لقد تغير الناس في مصر - وفي غير مصر في بلاد العالم الإسلامي فيما يلوح - وما من شك في أن المرحلة الأخيرة من عصرنا الحديث تبشر بتطور له خطره العظيم في حياتنا المقبلة، وقد وقف الأزهر الشريف في طليعة هذه الحركة، وأصبح لعلبائه الصدارة في مهاجمة الجمود وإنارة الأذهان وتطهير الصدور من أدران الحقد والتعصب.

حسبنا هذا عما قيل عن اضطهاد الزنادقة في الإسلام، ولنعرض في إيجاز إلى بعض ما قيل عن اضطهاد الذميين:

### أهرام الفاروق باضطهاد الذميين

ومن طريف المفارقات أن يتهم الفاروق باضطهاد الذميين من مسيحيين

(١) كانت جماعة كبار العلماء قد جردت في عام ١٩٢٥ مؤلف الكتاب الثاني من لقب العسالية، وبعد نحو اثنين وعشرين عاماً - عند طبع هذا - أعدت رئاسة مجلس الوزراء مرسوماً ملكياً بتعيين هذا المؤلف وزيراً للاوقاف، فأثار بعض حضرات العلماء مشكلته القديمة لأن قانون الأزهر لا يميز لمن أدين على هذا النحو أن يشغل وظيفة عامة، ووقف بالفعل تعيينه. ولكن العلماء قد عادوا والتمسوا من جلالة الملك إصدار عفوه عنه توطئة لتعيينه وزيراً.

ويهودا قيل إنه أول من وضعهم في مرتبة أدنى من مرتبة المسلمين ، وغالى في هذا الصدد حتى أذل أعناقهم جهرة عيانا ، روى ابن عبد الحكم أن عمر بن الخطاب قد كتب أن يحتم في رقاب أهل الذمة بالرصاص ، ويضربو مناطقهم ويجزوا نواصيهم ويركبوا على الألف عرضا ، ولا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه المواسي ، ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان ، ولا يدعوهم بتشبهون بالمسلمين في لبوسهم ، (١) وقيل إنه حرم عليهم رفع الصليب على كنائسهم أو العمل على إقامة كنائس أو بيع جديدة .. الخ ويقال إن هذا قد مهد لاضطهاد الذميين في الفترات التي اشتد فيها جمود الناس . ولنا على ذلك تعليق نرجئه إلى حينه .

قيل إن الإسلام يحمل نصيبا في تبعة ما أسلفنا من وجوه الاضطهاد ، وربما قيل في التدليل على هذا إن القرآن يؤيد الاستشهاد في سبيل الله تأييدا مطلقا ، فلنقف هنا وقفة قصيرة لنعرض ما يحتمل أن يقال في هذا الصدد ، ونعقب بمناقشته عسى أن يضيء لنا هذا ما يبدو مظلما في جوانب موضوعنا :

#### الاستشهاد في القرآن الكريم

أقر القرآن الكريم الاستشهاد في سبيل الله وأكبر من شأن الشهداء الذين يقعون صرعى في ساحة الجهاد قال تعالى : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات ، بل أحياء ولكن لا تشعرون ، ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ، ص ١٥١ طبعة ليون ١٩٢٠ م .



ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ، (١)

وتأكد هذا المعنى في قوله تعالى «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أموالنا بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، (٢)

فأما الآية الأولى فقد نزلت في شهداء بدر الذين بلغوا أربعة عشر رجلاً، إذ قال المنافقون - أي المتظاهرون بالإسلام - إن الشهداء يقتلون أنفسهم مرضاة لمحمد على غير هدى ، فنزلت الآية الكريمة تحث على الاستعانة بالصبر والصلاة وعدم الظن بأن الشهيد قد ضيع نفسه ، وتصرح بأن المشركين يجهلون أن الشهداء أحياء في الدين وعلى هدى من ربهم ونور ، وأنهم سيثابون وينعمون في الجنة « إن الأبرار في نعيم ، وإن الفجار في جحيم ، . وتندرج الآية الشهداء بأنهم سيعانون المشقات ولكن القيام بالشرائع يتطلب احتمال المحن ، وهذا ابتلاء يراد به أن يوطن الإنسان نفسه على الصبر فيبعد عنه الجزع ، والابتلاء محك الصدق في الإيمان . . وليست المحن في هذا الصدد عقوبات ، فقد وعد الله في

(١) - سورة البقرة آية ١٥٣ - ١٥٦ .

(٢) - سورة آل عمران آية ١٦٨ - ١٦٩ .

المؤمنين وفي مقدمتهم الرسول وصحبه (١)

أما الآية الثانية فقد نزلت في شهداء بدر وأحد ، حين ثبط المنافقون الراغبين في الجهاد فقالوا إنه يفضى إلى الموت ، كما قالوا ذلك في حق من فرغ إلى الجهاد يوم أحد ، وقالوا إن القتل شيء مكروه ، وردت دعواهم بأن القتل إنما يحدث بقضاء الله وقدره ، وكذلك الحال في الموت فالاحتراز لا يجدى صاحبه ، ثم إن القتل في سبيل الله غير مكروه لأن أصحابه يلبثون أحياء (٢) ، وقد خصهم الله بدرجات القربى والكرامة ومنحهم أفضل أنواع الرزق وأوصلهم إلى أجل مراتب الفرح والسرور ، ومن قعد عن الجهاد جاز أن يفوز بنعيم الدنيا وهو تافه زائل ، ومن خف للجهاد فاز بنعيم الآخرة وهو عظيم ومقيم (٣)

الاستشهاد عند رسول الله

كلن طبيعيا بعد هذا أن يسكون حظ الاستشهاد من إكبار رسول الله عظيما ، وليس أدل على ذلك من موقفه من شهداء غزوة مؤتة بوجه خاص ، إذ استشهد فيها على ما أشرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب - زيد بن حارثة

(١) رجعنا في تفسير هذه الآية إلى الفخر الرازي في مفاتيح الغيب ح ٢ ص ٣٥ وما بعدها  
 (٢) اختلف المفسرون في تأويل هذا اللفظ ، ولعل أدنى ما قيل إلى العقل ، أنه تعبير مجازي كما يقال للجاهل الذي لا يفتح نفسه ولا غيره أنه ميت ، ولأن خلف الذكر الطيب أنه حي لم يميت ، وقد فصل الرازي كما دلت في بيان الخلاف بين المتألمين والفلاسفة في معنى الفرح الوارد في الآية وفي معنى غيره من الفاظ ، فليرجع إليه من شاء من بدأ .  
 (٣) انظر في تفسير الآية الرازي في مفاتيح شيبه ح ٣ ص ٩٣ وما بعدها .



ثم جعفر بن أبي طالب ، وقد أخذ الراية منه ابن رواحة وتقدم بها وهو على فرسه ولكنه تردد بعض التردد ثم تناول سيفه وتقدم به مقاتلا حتى راح شهيدا .

ولما علم النبي نبا هؤلاء الشهداء الثلاثة ، كان على زيد وجعفر أكبر أسي ، وقال : لقد رفعوا إلى في الجنة فيما يرى الناسم على سرر من ذهب ، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازورارا عن سريري صاحبيه ، فسأل لم هذا ؟ فقيل له : مضيا وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى ، ١ .

بهذا أوجب رسول الله على المؤمن ألا يمتنع أو يتردد عن الموت في سبيل الله ، وأن يحمل حياته على كفه ويلقى بها في وجه من يقف في سبيله ، فإما ظفر بالغاية أو استشهاد في سبيلها .. وملعون من ينكص على عقبيه طمعا في جاه أو مال أو غرض من أغراض الحياة (١) .

#### هب المؤمنين للاستشهاد في سبيل الله

كان طبيعيا بعد هذا ، أن يهز حديث الاستشهاد نفوس المؤمنين ، ويدفعهم إلى ساحة الوغى وقد استخفهم الرضا وشاعت فيهم الغبطة طولا وعرضا ، وما نسوق إلا شاهدا واحدا ندلل به على صدق ما نقول ، ذلك ما كان من أمر

المؤمنين وإقدامهم على القتال يوم أحد ، إذ رأى بعض المسلمين أن يتحصنوا بالمدينة ورأى غيرهم أن يخرجوا للقاء العدو ، وقد أثاروا القلوب بالتحدث عن الشجاعة والاستشهاد ، وعن الجنة التي أعدت لمن يقتل في سبيل الله ، وقد قال خيشمة أبو سعد بن خيشمة « عسى الله أن يظفرنا بهم أو تكون الأخرى فهي الشهادة ، لقد أخطأتني وقعة بدر وكنت عليها حريصا ، حتى بلغ من حرصي عليها أن ساهمت ابني في الخروج ، فخرج سهمه فرزق الشهادة . وقد رأيت ابني البارحة في النوم وهو يقول : ألحق بنا ترافقتنا في الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً . وقد والله يارسول الله أصبحت مشتاقا إلى مرافقته في الجنة ، وقد كبرت سني ورق عظمي وأحببت لقاء ربي ، (١)

كان طبيعيا جداً أن يحدث هذا وأكثر منه ، بعد الذي لقيه الإستشهاد في آيات العزيز الحكيم وأحاديث رسوله الأمين من وجوه الثناء والإكبار ، ومن أجل هذا كانت حماسة المؤمنين في قتال المشركين ومن إليهم ممن يخشى أن تعصف ثورتهم بالعقيدة التي نزل بها الإسلام . وباسم هذه الروح - فيما يقال - قد وقعت بعض الملاحم - مع برائة الدين من وصحات الإكراه ، وصراحته في تحامى وقوع المذابح والفتن والحروب .

### القتال المباح في الإسلام

في الحق إن الوحي قد نزل بالتسامح على محمد منذ هجرته ، ففتح للسلم وورغب

(١) المصدر نفسه ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .



عن القتال واقتصد فيه طوال حياته أشد القصد ، وإنما أبيض القتال في سبيل غاية واحدة هي كفالة العقيدة والرأى ، وفي سبيل الدفاع عنها ، أبيض دفع المعتدى حتى لا يفتن أحد عن دينه ، ولا يظلم أحد بسبب عقيدته أو رأيه ، (١)

على أن الإسلام ينكر حرب الاعتداء ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين (٢) ، ولكن دفع فتنة المؤمنين عن دينهم بالقوة ، كان الغاية الأولى التي شرع من أجلها القتال ، ويشهد بهذا ما نزل من الآيات في سرية عبد الله بن جحش الأسدي ، فقد أحل الله القتال من أجل هذه الغاية في الشهر الحرام ، قال تعالى : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا (٣) »

ومعنى هذا أن القتال في نظر القرآن من الكبائر ، ولكن الصد عن سبيل الله والكفر ، أكبر من القتال في الشهر الحرام ، « وفتنة الرجل عن دينه بالوعد والوعيد وإغراء والتعذيب ، أكبر من القتل في الشهر الحرام وفي غير الشهر الحرام » . وقد ظن بعض المستشرقين أن محمداً يدعو بهذا إلى القتال

(١) هيسكل : حياة محمد ص ٢١٧-٢١٨ و ٥٦١ من الطبعة الثانية وقد رجع في تفسير الآية السالفة إلى الطبري وابن جرير  
(٢) البقرة آية ١٨٩  
(٣) البقرة آية ٢١٦

والجهاد بالسيف في سبيل الله ، وإكراه الناس بالقوة على اعتناق الإسلام ، وهذه فرية تشهد بها آيات الله في كتابه المجيد كما سنعرف بعد قليل .

### الجهاد في الإسلام

فالجهاد في الإسلام معناه « قتال الذين يفتنون المسلم عن دينه ويصدون عن سبيل الله ، فهو دفاع عن الرأى بسلاح الذين يهاجمون هذا الرأى ، متى كان هذا ممكنا (١) .

وقد أقر الإسلام قتال الثائرين على عقيدته المعنوية العامة ، فإن كانت ثورتهم جاحمة وجب قتالهم حتى يذعنوا ، وإن كانت غير جاحمة - كثورة أهل الكتاب - وجب أن يلزموا بدفع الجزية عن يدهم صاغرون . ومن التجنى أن يعاب هذا بحجة أنه محاربة لحرية الرأى ، فإن الحضارة الأوربية الحديثة وإن كانت تقوم على حرية الرأى ، فإنها ترى أن التشريع ليس إلا قمعاً لحرية الرأى له ما يسوغه ، وأن الثورة على الشر واجب لا مفر منه ، ومن أجل هذا حاربت الرق ومحلات العرى وإفساد الأخلاق ونحوه (٢) .

فالجهاد - وحسبنا منه معناه ومبرراته في الإسلام - هو استفراغ الوسع في مدافعة العدو ومجاهدة الشيطان والنفس ، ومن غايات القتال في الجهاد

(١) انظر هذا مفصلاً في هيكل ص ٢٤٣ - ٢٤٧

(٢) هيكل ص ٤٥٨ - ٤٦٢ .



منع الفتنة في الدين ، أي منع اضطهاد الناس من أجل دينهم وإكراههم على تركه ، وقد فرض القتال على المؤمنين ليقاتلوا من يقاتلهم ويعاديهم في دينهم .

ومسألة جهاد العدو بالسيف ليس فيها إجماع من المسلمين إلا في حالة اعتداء الأعداء إذ يتعين الجهاد : عندما يلتقى الجيشان ، أو ينزل الكفار ببلد ما ، أو يستنفر الإمام قوما فيلزمهم النفيير معه .

والإسلام - بعد هذا - يمنع الحرب للإكراه على الدين أو الإبادة أو الاستعباد الشخصي أو القومي أو لسلب الثروة أو القهر أو نحوه (١)

### الحربة في الإسلام :

وقد أقرت شريعة الإسلام حرية الضمير والعبادة وكفلتها لأتباع كل دين يحيا في ظل الإسلام ، ومنع الإكراه على اعتناقه ، قال تعالى في سورة البقرة « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » ، وقال في نفس السورة : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ، وقال تعالى في آل عمران : « وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ، وقد عقب رسول الله بفيض من الأحاديث النبوية يؤيد بها النسخ المحمود - وهذه الأحاديث لم تصدر عن حماسة رجل ضعيف لا حول له ولا قوة ، ولا عن فلسفة حالم قصت القوى المعادية جناحه ، ولسكنها صدرت عن رجل كان في أوج

(١) السيد محمد رشيد رضا في الجزء الحادي عشر من تفسيره

قوته على رأس أمة فتية منظمة قادرة على أن تفرض بعد السيف عقيدتها . ولم تكن الدعوة إلى التسامح في الإسلام وليدة الضعف والحاجة إلى المعاملة اللينة ، بل لقد صاغ محمد التسامح قانوناً أقر فيه حرية العبادة حقاً للشعوب المهزومة ، ومن أبي منهم الإسلام ألزم بدفع الجزية وبقي حراً في عقيدته - فلم يزاول الإسلام الاضطهاد ولم ينشئ رجاله قط محكمة تفتيش ... (١)

### موقف الاسلام من الزميين :

أشرنا فيما أسلفنا إلى أن الإسلام لا يقر القتال لغير الثائرين على عقيدته ، بل يقنع بالجزية ممن كانت ثورتهم غير جاحمة ، وحين اطمأن رسول الله في مقره يثرب وضح اتجاهه الى تأييد كل من اتبع الهدى ودخل في دين الله ، وظهر حرصه على كفالة حرية العقيدة لاتباعه وغير أتباعه على السواء ، بحيث يتساوى عندها المسلم والنصراني واليهودي جميعاً - قال تعالى وإن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، (٢)

وبهذا أقر القرآن التسامح في أرحب آفاقه ، فمن آمن بالله واليوم الآخر

(١) Ameer Ali, The Spirit of Islam Part II ch. 4. ١٣. ٢١٢ وخصوصاً ص ١٣٠.

وانظر مقارنته بين تسامح الإسلام وتعصب غيره من الأديان في هذا الفصل وغيره .

(٢) سورة البقرة آية ٦١ والمراد بالذين هادوا من اعتنقوا اليهودية وبالصابئين من لادين لهم - أوهم الذين يعبدون الملائكة . أوهم الذين يدينون بالثوحيد وليس لهم مكتاب ولا نبي - على خلاف في التأويل .



وعمل صالحا فله أجره عند ربه ، من غير تفرقة بين المؤمنين وغيرهم من اليهود والنصارى والصابئين .

ومن هنا يستبعد المنصف ما اتهم به الفاروق من اضطهاد الذميين أو إساءة معاملتهم - فان من يدين بالاسلام الصحيح ويعرف ألا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، لا يمكن إلا أن تصفو نفسه من إحن التعصب ، ويفيض قلبه بالتساح والعفو والرحمة .

### سماحة الفاروق مع الملحجين :

وحسبنا في دحض اتهام الفاروق باضطهاد الذميين أن نذكر نص الصلح الذي عقده مع رسول صمريوس أسقف بيت المقدس كنموذج لموقفه من الملحجين إذ قال - في رواية الطبرى .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان : أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبرئها وسائر ملتها ، إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من غيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو

آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بينهم وصلبهم فإنهم على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا ما منهم . ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله . وانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذي عليهم من الجزية ، - وختم عمر الكتاب بتوقيعه وشهد عليه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان .

وهكذا كان عمر بن الخطاب مع قبط مصر أقرهم وأمنهم على أموالهم وأنفسهم وعقائدهم ، فلا يضار أحد بسبب دينه ولا يكره على شيء في أمره ، من شاء منهم أن يرحل مع الروم كان له ما أراد ، ومن شاء من الروم والأجانب المقيمين بالمدينة أن يظل بها بقى آمنا وليس على أهل المدينة إلا أداء الجزية لقاء منعهم وكفالة أمنهم . (١) وبمثل هذا كان يعامل الفاروق الذميين فيما نعلم .

#### أسباب ما أسلفناه من وجوه الاضطهاد

إذا كان هذا هو موقف الإسلام والمؤمنين من أهله ، فكيف وقع ما روينا من وجوه الاضطهاد في بعض مراحل التاريخ ؟ إن الاضطهاد الذي

(١) مبعث ح ١ الفاروق ص ٢٥٦ - ٢٥١ طبعة أولى .



وقع في العصر العباسي مرجعه في الأغلب والأعم إلى أسباب سياسية أو خصومات شخصية أو أدبية أو دينية أو عقلية لا يحمل الدين وزرها، ومثل هذا يقال في كل وجوه الاضطهاد التي تعزى إلى الاسلام زورا وبهتاناً .

أما استئصال القرامطة فإن مرجعه إلى ثورتهم الجاحفة على العقيدة الإسلامية، وتمردهم على أبسط قواعد الأمن، ومن أجل هذا كان قتالهم اتقاء لشرم ودفاعا لعدوانهم ومنعا لحركات السلب والنهب والتدمير، وحرصا على كفالة الأمن والسلام بين الناس .

وأما تشييد موقعة الشيعة بمذبحة سان بارتلبيو، لحسبنا في التعليق عليه أن نذكر القارىء بما روينا عن تلك المذبحة وموقف أولى الأمر منها وابتهاج البابا بآثارها، لنعرف الفرق بين معركة ينص مؤرخها - ابن الأثير - على أن قتلها هم العامة، وبين مذبحة يدير أمرها ويطرب لها أهل الحكم الدينى والسياسى معا وإن كان من الإنصاف أن نقول إن الديانتين بريتان من وصمة الدم الذى أريق في كليهما.

مُعقِب

وهكذا مكن الإسلام لمبدأ التسامح وأقر حرية الضمير والاعتقاد بما لا يدع مجالاً لشك، فحرم الإكراه على اعتناق الدين في وقت كان يقوى فيه على فرض عقيدته بحد السيف. وقنع من الذميين بدفع الجزية وكفل لهم حرية

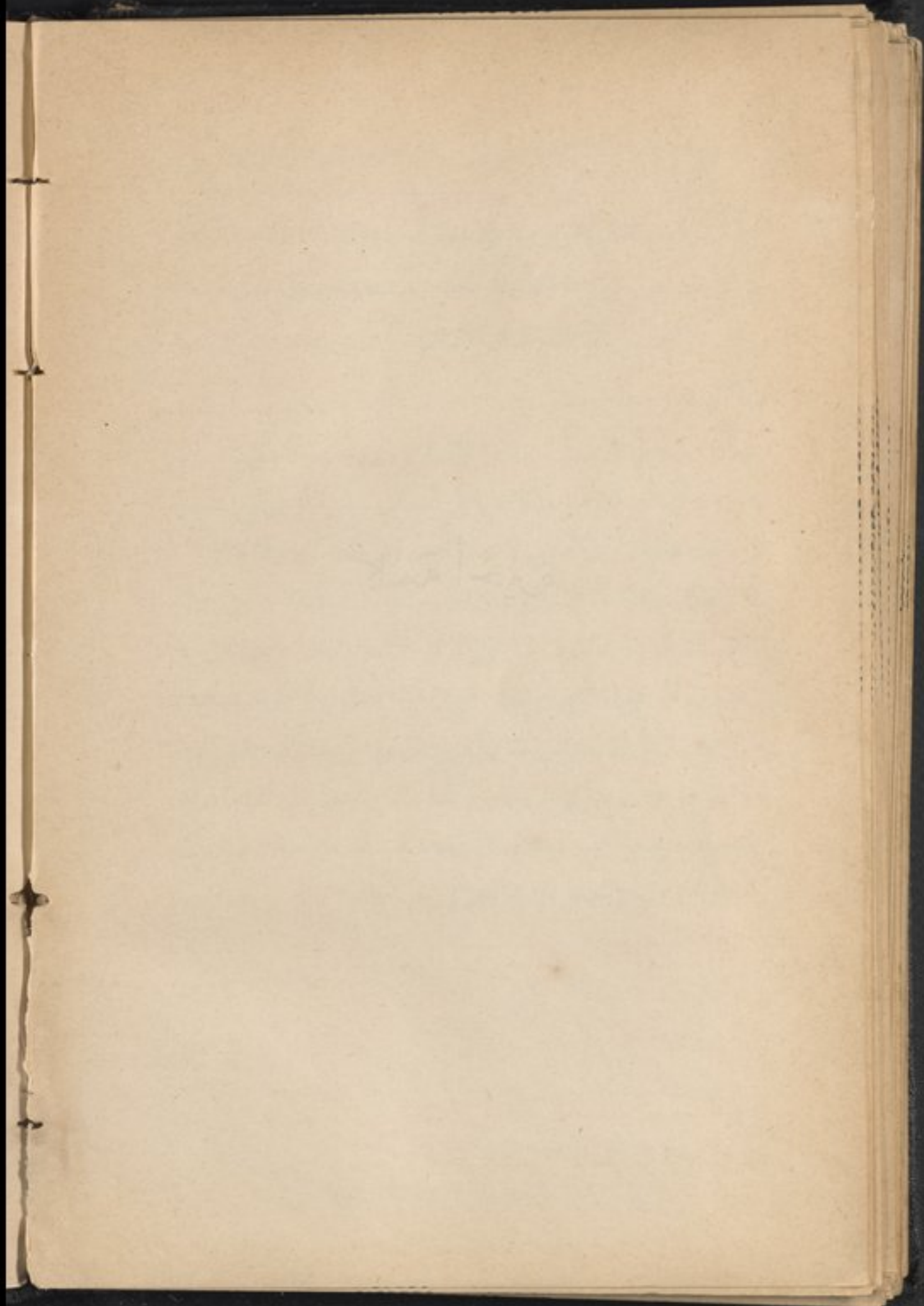
العبادة . ولم يبح القتال إلا حرصا على كفالة العقيدة والرأى ، ودفعما للمعتدى حتى لا يفتن أمرؤ عن دينه ولا يضار أحد بسبب عقيدته ، وفي سبيل هذا وحده أحل القتال وكان الاستشهاد في سبيل الله موضع الثناء والتقدير .

أما ما عرف في بعض مراحل الإسلام من وجوه الاضطهاد - مع قلته وخفة تبعاته - فإن مرجعه كما قلنا إلى أسباب سياسية أو دوافع شخصية أو بواعث عقلية - وهي أسباب لا يحمل الدين وزرها في كثير ولا قليل .

وقاتل الله الذين اتخذوا الإسلام - أو غيره من الديانات ستارا يخفون وراءه نزعاتهم الشريرة ، ويرتكبون باسمه من الأثام ما نزلت الأديان لتدفع الناس عن ارتكابه ، وتصرفهم إلى أسس مبادئ الخير والحق والجمال ، ولا عبرة بعد هذا بما يحتمل أن يقال من أن نصوص العقائد إن برئت من دم الجريمة الآثم ، حملت آثارها السيكولوجية في نفوس المؤمنين بها وزر أئمتها عدلا وإنصافا - أو كان لها في تبعه الاضطهاد نصيب على أقل تقدير - إن في هذا تجنيا صارخا واضح البطلان ، لأنه يكاد يلغى الفروق التي تفصل بين البراءة والإجرام



كلمة أخيرة





## كلمة أخيرة

بدء التسامح الديني - مراحل التسامح - أثر المذهب العقلي في تقويض الاضطهاد - انتفاء  
العدالة باجتماع التعصب والسلطة - متى ينتج الاضطهاد ومتى يفشل - التسامح الديني بين  
المدنية الاوربية والقرآن الكريم - استمرار التعصب الديني في أوروبا الحديثة - موقف مصر  
الحديثة من مقاومة الاضطهاد - موقف المسيحية من التعصب في أوروبا - تبعه الصلح المقدسة  
في الاضطهاد .

### برء التسامح الديني

منذ ثلاثة وعشرين قرنا من الزمان ، اضطرت في الهند و البرهمانية  
والبوذية ، وضاق بصراعهما الملك الهندي السمع و أسوكا ، Asoka ، فأصدر  
مرسوما يقضى بأن تتساوى حقوق هاتين الديانتين وامتيازاتهما في ملكه ..!  
فكان هذا أول مرسوم بالتسامح الديني في تاريخ البشر ..!

أما في أوروبا فان أول مرسوم قضى بالتسامح قد صدر في عام ٣١١ وتلاه  
مرسوم ميلان عام ٣١٣ من ميلاد المسيح ، على ما عرفنا عند الحديث على  
الاضطهاد الذي نزل بالمسيحية ، ولكن هذين المرسومين لم يقضيا على  
الاضطهاد ، بل حولا دفته ..! إذ بدأت الكنيسة تتولى خصومها بالاضطهاد  
وكانت إلى الأمس القريب من ضحاياها !

### مراحل التسامح

ولبت الحال على هذا - بوجه عام - حتى ثارت مشكلة التسامح الديني في  
القرن السادس عشر ، حين اشتد النزاع بين معسكر المصلحين من البروتستانت ،

وظهر التسامح فى صور متعددة عاشت عدة قرون ! تراوحت فيها بين الرغبة فى منحه لبعض الشيع المسيحية دون غيرها ، أو لاتباع المسيحية على اختلاف نحلهم دون غيرهم من أهل الأديان الأخرى ، أو توفيره . لسكافة الأديان وسلبه عن أحرار المفكرين ، أو حرمان الملحدين والمارقين منه مع إبقائه للدولة الذين يعترفون بوجود إله هدت إليه طبيعة العقل البشرى ، وينكرون الوحي والرسول والكتب المقدسة وما يلحق بها ... إلى آخر هذه الصور التى عرفنا أمرها فى هذا الكتاب . ولكن أحرار الفكر قد واصلوا جهودهم حتى تجاوزوا مراحل هذا التسامح ، إلى إقرار الحرية الدينية فى القرن الغابر ... بعد ثلاثة قرون تسكست فيها جثث الشهداء فى ميادين الجهاد أكواما ..

#### أر المذهب العقلى فى تقويض الاضطهاد

وقد عرفنا أن الإصلاح الدينى قد مهد لطلب التسامح على كره منه وغير قصد من رجاله .. ! وأن الشيع التى جاھرت به وبشرت بإذاعته أدخلها المصلحون فى زمرة المارقين .. ! وأن ما حدث بعد ذلك من تقويض التعصب وتطهير القلوب من فكرة الاضطهاد ، مرجع الفضل فيه الى ظهور المذهب العقلى الذى أقر سلطان العقل ومكن للثقة بمنطقه عند أحرار الفكر فى انجلترا وفرنسا بوجه خاص ، وقد بذت النزعة العقلية فى الشك الذى ساور رءوسهم واتجه بهم الى زعزعة الأسس التى قام عليها التعصب واستند إليها الاضطهاد .  
وبما أسلفناه فى فصول الكتاب من عرض خاطف لظاهر الاضطهاد الدينى



وبواعثه نلاحظ :

### انتفاء العرانة باجتماع التعصب والسلطة

إن التعصب إذا أيدته سلطة زمنية حمل أصحابه على جناح العنف البالغ الى التثكيل بخصومهم في غير رفق ولا رحمة ؛ وأن المتعصب المتزمت لا يدعو الى التسامح الا حين يكون موضعاً لاضطهاد ؛ كان هذا أمر الكثيرين من المسيحيين مع الوثنيين في بدء عهدهم ، فلما استقر نفوذهم وتبسات لهم السلطة نزعوا الى اضطهاد اليهود والوثنيين وغيرهم من الملحدين ؛ وكذلك كان الحال مع البروتستانت ، مجدوا من شأن التسامح في بدء حياتهم مع أصحاب السلطة من الكاثوليك ، فلما ظفروا بالسلطان نكلوا بخصومهم من الكاثوليك والملحدين شر تثكيل ؛ وكذلك كان الحال عند بعض المسلمين ، وحسبك أن تذكر ما وقع للبعثة حين واتتهم السلطة في عهد المأمون والمعتصم ، لم يقنعوا بالتزام الحجج والمنطق العقلي ، بل حكموا السيف في رقاب مخالفيهم !

### منى بنجاح الاضطهاد ومنى بفشل

على أن الغلبة في هذا النزاع كله كانت على الدوام لمن كان أقوى إيماناً وأشد تعصباً ؛ ولا عبرة بعد هذا بكثرة العدد أو قلته ، وقلة جرئته متعصبة أقدر على نصرته المبدأ من كثرة ضعيفة متخاذلة ؛ ولا قيمة لاضطهاد المؤمنين والمتزمتين إذا لم يكفل هذا الاضطهاد بإيادتهم واستئصال شأفتهم من الوجود ؛ لأن الإيمان إذا كان يزحزح الجبال - فيما يقول الإنجيل - فإنه لا يقوى على زحزحتها

إذا اتصلت ذروتها بالسماء ؛ ويكون نجاح الاضطهاد مكفولا حين يبقى على الإيمان نفسه ويقنع بتغيير مجراه ، بهـذا زالت ديانات ومذاهب ، وأخذ غيرها مكانها في قلوب الناس على مر التاريخ . هذه فكرة يشهد بها انتصار الاضطهاد الدامي على الاسلام في أسبانيا وعلى الأليبيين والجانسنست وغيرها من الشيع الدينية في المسيحية ، وعجز الاضطهاد عن مقاومة المسيحية أو البروتستانتية على ما عرفنا .

وهذا على عكس الاضطهاد إذا كان يهدف الى « إلغاء » فكرة صحيحة تكشف عنها البحث العلمي أو النظر الفلسفي - كما قلنا في مقدمة الكتاب ، لأن مثل هذا الاضطهاد يستطيع أن يستأصل أتباع هذه الفكرة في زمان ومكان ما ، ولكن الفكرة لا تلبث حتى تجد أنصارا جددًا يستأنفون تأييدها وعلى يدهم يكون انتصارها - طال العهد بتأييدها أو قصر ؛ وقد أبنا عن هذا بالتفصيل في كتابنا « قصة النزاع بين الدين والفلسفة » .

### الفسامح الديني بين المذبذبة الاوربية الحريئة والفرآه الكريم

وقد عرفنا ، أن التعصب الديني لبث جاثما في صدور الناس في أوربا حتى القرن الثامن عشر ، وأن ألمانيا قد سبقت الى تأييد هذا المبدأ الكريم ، وأن فردريك الأكبر حين ولي عرش بروسيا في القرن الثامن عشر ، قد رأى أن من حق كل إنسان أن يصل إلى الجنة بالطريقة التي تروقه ، فكانت هذه وثبة في تاريخ التسامح ، بل كانت حدا فاصلا بين عهدين ، واتسعت الهوة بين بروسيا في



عهد، وانجلترا تحت حكم جورج الثالث وفرنسا تحت إمرة لويس الخامس عشر وإيطاليا تحت كابوس البابوات . .

ولكن - ألم يكن موقفه متمشيا مع ما نزل به القرآن الكريم قبل عصره بنحو أحد عشر قرنا حين قال : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ، أو حين قال « وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، » .

أو حين سوى - الإسلام - بين الناس فلم يجعل لعربي على عجمي فضلا إلا بالتقوى ، ووعده بالخير كل من آمن وعمل صالحا ، سواء أكان من المؤمنين من المسلمين أم غيرهم من اليهود والنصارى والصابئين على ما عرفنا من قبل ؟

#### استمرار التعصب الديني في أوروبا الحديثة

ولكن من قال إن المدينة الغربية قد قضت على التعصب الديني ، وأشاعت روح التسامح بين الناس ..؟ إن التعصب لا يزال يستبد بهوى الناس في أوروبا الى عهدنا الحاضر ! وليس أدل على هذه الروح من كلمة اللورد اللنبي حين استولى باسم الحلفاء - انجلترا وفرنسا وإيطاليا وأمريكا ورومانيا - على بيت المقدس في أواخر الحرب الكبرى الماضية - عام ١٩١٨ - فقال عندهيكل سليمان : « اليوم انتهت الحروب الصليبية ... » وعقب على هذا الاستيلاء الدكتور بيترسون سميت في كتابه عن سيرة المسيح بقوله « إنه كان حربا صليبية ثامنة أدركت المسيحية فيها غايتها .. ! »

ومنذ بضع سنوات كان « تشرشل ، يثير حقد العالم على « النازية ، ويستغفر

الرأى العام فى الحرب الأخرىة ، فى دعوى فى خطبه إلى قنال الألمان إبقاء على  
المدنية المسيحية... أو كان المستعمرون من أمثال اللورد كرومرين عمون أو الانجليز  
دخلوا مصر فى عام ١٨٨٢ لينشروا الحضارة الإنسانية وفاقا لتعاليم الدين المسيحى !

### موقف مصر الحديثة من مقاومة الاضطهاد

وبهذه الروح تقع الاضطهادات الدينية فى أوروبا الحاضرة ، وحسنا فعل  
وفد مصر فى هيئة الأمم المتحدة - وعلى رأسه الدكتور هيكل باشا - حين اقترح فى  
أخريات عام ١٩٤٦ أن تتخذ الجمعية العمومية للهيئة « أمرع التدابير  
وأفعلها لوضع حد للاضطهادات الدينية فى أوروبا الوسطى ، لأن التحقيقات  
التي أجريت فى مختلف دول أوروبا الوسطى ، قد أثبتت « أن السكان الذين  
ينتمون إلى أقليات دينية ، لا يزالون - رغم انتصار الديمقراطية - معرضين  
للاضطهاد وللتحامل الدينى ، وهى حالة تجعل حياتهم فى منتهى الصعوبة فى بلاد  
لهم حق واضح فى أن يتساووا فيها مع كل من عداهم من سكان هذه  
البلاد ،

وإذا كان لنا أن نعلق على الاقتراح المصرى بشيء ، فذلك أنا نلاحظ ما  
لاحظه الأستاذ الجليل الدكتور طه حسين بك فى مقال له من قبل ، حين أخذ الوفد  
المصرى على قصر اقتراحه على أوروبا الوسطى ، وكان الأخرى أن يشمل الهند  
وفلسطين وإفريقيا الشمالية وغيرها من البلاد التي تعاني عذاب الاضطهاد الدينى فى  
وقتنا الحاضر . . ولو تجاوز الاقتراح المصرى نطاقه الضيق إلى التعميم لكان من  
المحتمل ألا يثير فى هيئة الأمم المتحدة الجدل العنيف الذى أثاره ، وألا ينتهى



بالأعضاء إلى رفض إدراجهم في جدول الأعمال ..! مع تسليمهم بأن الاضطهاد في كل صورته ، يتنافى مع أيسر مبادئ الديمقراطية وأبسط أصول الحضارة وأقل مظاهر الكرامة الإنسانية (١) .

### موقف المسيحية من النعصب في أوروبا

على أن من الإنصاف أن نكرر ما قلناه في أكثر من موضع ، من أن المسيحية السمحاء بريئة من تبعات الدم الذي أريق باسمها ، والنفوس التي ذهقت من أجلها ، وما أجل المسيح - عليه السلام - حين يقول في خطبته على الجبل : سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا .. سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم وباركوا لاعينكم ، أحسنوا إلى مبغضيك ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ، ...!

بهذا الروح السامح جاءت المسيحية ، وسرعان ما تحول في قلوب المتزمتين تعصبا جارفا يحتاج كل مبدأ كريم ، وحقدا مضطرا يدفع أصحابه إلى ارتكاب كل جرم أئيم ..!

ومع ما لقي موكب الحرية الدينية من مصاعب ومشقات ، مضى في طريقه قدما وتخلف الرجعيون وفاتهم الركب ، فعسكروا حيث كانوا وقد قل عبيدهم

(١) من أجل هذا عادت جمعية الأمم المتحدة فقررت اقرار الاقتراح باجتماع الآراء .

واضح لنعوذهم واتضاءت آمالهم ، وباتوا يسرحون الطرف في مواكب الحرية  
الظافرة قيرتد بصرهم خاسئا وهو حسير ...

### تبع النصوص المقررة في الاضطهاد

وبعد ، فقد قيل على ما أشرنا من قبل - إن الذي يعنينا من الأديان ليس نصوصها  
المدونة في بطون الكتب المقدسة مستقلة عن نفوس المؤمنين بها، بل يعنينا آثارها  
السيكولوجية في نفوس معتققيها، وإذا كانت النصوص خلوا من كل دعوة تدفع  
إلى القمع والتكيل والاضطهاد ، فإن الإيمان بها يفضي من الناحية السيكولوجية  
لإحالة إلى نتائج قد لا تمشى مع حرفية هذه النصوص ! ومن أجل هذا لازمت  
البدع الأديان مع براءة نصوص هذه الأديان من وصياتها .

في الحق إن إثارة مثل هذا الاعتراض لا تكون متمشية مع منطق العقل  
إلا حين تهدف إلى إلغاء الإيمان والانصراف عن اعتناق الأديان . وقد قلنا في  
مقدمة الكتاب إن الإنسان بطبيعته لا يستطيع - بالغما ما بلغ احترامه لشريعة  
العقل - أن يحيا فارغ القلب ، وليس الإلحاد في كل صورته إلا إيمانا انحرف عن  
طريقه المرسوم ، ومن هنا قال الذين أرخوا ظاهرة التدين في كل زمان ومكان :  
لا يموت في قلب الإنسان إله حتى يحتل مكانه إله آخر ! ناهيك بما يترتب على  
الإيمان من وجوه النفع الأدبي والمادى على السواء . وفي مقدمة الكتاب غنية عن  
التفصيل



إذا كان هذا هو شأن الإيمان من حيث إنه ضرورة لا مفر منها، ومن حيث إنه نافع للأفراد والجماعات - أديبا وماديا - وجب إغفال كل اعتراض يسكون من شأنه الخط من جلال الإيمان. أما إلقاء تبعه الاضطهاد على عاتق الأديان مع خلو نصوصها من أية إشارة تحملها وزر هذا الأثم، فإن في هذا - كما قلنا في نهاية الفصل السابق - تجنيا صارغا واضح البطلان، لأنه يكاد يلغى الفروق التي تفصل بين البراءة والإجرام!

## أهم مصادر الكتاب (١)

### ١ - مصادر عامة :

- W.E.H. Lecky. Hist. of the Rise & Influence of the Spirit of Rationalism in Europe 2 vols. 1865.  
ولا سيما الفصل الأخير في الجزء الأول والتصل الأول في الجزء الثاني.
- J.B.Bury. A History of Freedom of Thought 1920.  
له ترجمة للإستاذ محمد عبد العزيز اسحاق تحت عنوان «حرية الفكر» ١٩٤٦.
- E.S.P.Pynes. Religious Persecution (1904)
- Van Mildert. Historical View of the Rise & Progress of infidelity 1808.
- A. D. White, Hist. of the Warfare of Science with Theology in Christendom 2 vols.  
ترجمه شطرا كبيرا من الجزء الأول منه الأستاذ الجليل اسماعيل مطهر تحت عنوان بين الدين والعلم.
- J.M. Robertson. A. Short Hist. of Free-Thought. 2 vols.
- M.Barni. Les martyrs de la Libre Pensée.
- Encyclopedia of Religion & Ethics.  
في المواد الآتية بوجه خاص (وقد اشترك في كتابتها بعضها عدة علماء) :  
Toleration, Persecution, Inquisition, Saints & Martyrs, Anti Semetism, & Protestantism.
- G. Lebon (1) Lois psychologiques de l'evolution des peuples 1894.  
وقد ترجمه الى العربية احمد فتحي زغلول باشا تحت عنوان «مرا تطور الامم» ١٩٢١
- 2) La revolution Française et la psychologie des revolutions  
وقد ترجمه الأستاذ محمد عادل زعبيتر تحت عنوان «الثورة الفرنسية وروح الثورات».

---

(١) بعض المصادر التي ذكرناها في هوامش الكتاب لم يرد ذكرها هنا. وبعض المصادر المشار اليها هنا ذكرناه لمن شاء التوسم في دراسة موضوع الكتاب وان لم تتمكن نحن من قراءته.



M. Creighton Persecution and Toleration. London 1895.

الكتاب المقدس ( ولا سيما انجيل متي في العهد الجديد )  
توفيق الطويل : قصة النزاع بين الدين والفلسفة ١٩٤٧ (والسكنير مما ورد فيه من  
مصادر)

ب - عن المسيحية ( الكاثوليكية والبروتستانتية ) عدا ما أسلفنا ذكره في  
المصادر العامة :

Rohrbckers Hist. de l'Eglise Catholique.  
Milman. Hist. of Christianity.  
Lindsay. A Hist. of Reformation.  
Mackinnon. Origin of Reformation.  
Merle. The great Reformation of the 16th. Century in Ger-  
many 5 vols.  
Henri. Life of Calvin.  
B.Hube. Hist. des persécutions de l'église jusqu'à la fin des An-  
tonius (Paris 1875)  
H.M.Gwatkin. Early Christian History 2 vols. London 1879  
Montbeliard. Les idées de Luther sur la répression de l'hérésie, 1901

ج - عن محكمة التفتيش :

H.Lea. 1. A Hist. of the Inquisition of the Middle Ages 3 vols.  
2. A Hist. of the Inquisition in Spain, 4 vols.  
Coulton. Inquisition and liberly.  
D.J.A. Llorente Hist. Critique de l'inquisition d'Espagne.  
Maycock. The Inquisition.  
Fereal. Mystères de l'inquisition.  
H.Ch.Ica. Hist. de l'Inquisition au moyen age (Eng translation  
by S. Reinach 1900)

د - عن الاسلام .

القرآن الكريم ، تفسير الفخر الرازي ( مفاتيح الغيب ) والمنازل لابن محمد رشيد رضا -  
والطبري ( جامع البيان في تفسير القرآن )  
محمد عبده : الاسلام والفصراية الطبعة الاولى  
رسالة التوحيد الطبعة السادسة

فرح انطون : آبن رشد وفلسفته ١٩٠٣  
 محمد حسين هيكل باشا : حياة محمد (الطبعة الثانية)  
 الفاروق عمر مجزئيه الطبعة الاولى  
 احمد امين بك : فجر الاسلام الطبعة الثالثة  
 ضحى الاسلام ح ١ العايمه الثالثة (١٣٨)  
 هـ . عن التسامح الديني :

- Ameer Aly. The Spirit of Islam 1923.  
 Kamal Mohd. Ben La tolérance religieuse dans l'Islamisme, traduction; Ba-  
 Mostafa zard; Alger 1902.  
 Encyc. of Religion & Ethics art. Persecution & art. Toleration (by H.T.W  
 Arnold.)  
 F. Ruffini. Religious Liberty (Eng. trans. by J. Parker Hayes, with  
 a preface by J.B. Bury 1912)  
 P. Schaff. The progress of Religious Freedom as shown in the  
 Hist. of Toleration Acts New York, 1889.  
 Matagrins. Hist. de la Tolérance Religieuse: Evolution d'un princi-  
 pe social; Paris, 1905.  
 Maillet. L'Église et la répression sanglante de l'hérésie, Liège  
 Paris, 1909  
 Vermeersche, S.J. La Tolérance; Louvin 1912.  
 Dubois. Bayle et la Tolérance, Paris 1902.  
 Wallace. St. John. The Contest for Liberty of Conscience in En-  
 gland; Ghicago, 1900.  
 Russel Smith. The theory of Religious Liberty in the Reigns of Char-  
 les II - James II; Cambridge, 1911.  
 Seaton. The Theory of Toleration under the Later Stuarts; Cam-  
 bridge; 1921.  
 Bonet - Maury. Hisoire de la Liberté de Conscience en France depuis  
 L'Édit de Nantes jusqu'en 1870; 2me. ed. Paris 1909.  
 Robert. Voltaire et L'intolérance religieuse, Lausanne, 1904.  
 Thadeus de  
 Trantsmandorff. La Tolérance ecclésiastique et civile.  
 J. Godwin. Plea for Liberty of Conscience 1914.



## كشاف

### بأهم الأعلام والمصطلحات

بينزا ١٠٣ ١٠٦	اين الراوندي ١٥٣ ١٥٢
بين (توماس) ١٣٧	ابن رواحه (عبد الله) ١٦ ١٧ ١٦١
بيوريتان ٩٤ ١١٥ ١١٦	ايناغوراس ٣٦ ١٧
بيوس التاسع ٨١ ١٤٠	أرمانوس ١١٤ ١١٧
بيوس الخامس ٨١	آريوس ٤٦ ٤٩ ٥٠ ٥٢
ترتليان ٣٨ ٤٦ ٥٦	الصبابات Elizabeth ٨١ ٨٨ ٩٣
التسامح الديني ٧ ٨ ١٠-١٣ ٣٣	الامام (انظر: محمد عبده)
٣٤ ٣٨ ٤١ ٤٢ ٤٤ ٤٧ ١٦	أمبروز ٥٥
٥٦ ٦٨ ٨٣ ٨٦ ٩١ ٩٣ ٩٥	أناباقتست (انظر: منكرو التعميد)
٩٦ ١٠٢ ١٠٦ ١١٠ ١١٤ ١٢٨	إنوسنت الثالث ٦٦ ٦٧ ٧٨
١٢٩ ١٣٢ ١٣٤ ١٤٣ ١٦٢ ١٦٥	إنوسنت الثامن ٥٧
الي ١٦٧ ١٦٩ ١٧٣-١٧٧	أوغسطين (القديس) ٤٥ ٥٠ ٥٧
تشرشل ١٧٧	٦٠ ٦٨ ٩٣ ٩٨ ١٢٦
تشارلس الاول ١٠٤ ١١٦	إبثاكوس ٥٥
تشارلس التاسع ٨٩ ٩١	بابتست Baptists انظر: تعميم
تشارلس الثاني ٩٤ ١١٥ ١١٩ ١٢١	(أصحاب)
تشارلس الخامس ٧٩	البابية (ديانة) ٧ ٢٢ ٢٣
تعصب ٢ ١١ ١٤ ١٧ ٢٠ ٣٢	برسبتريون Bresbyterians ١١٧ ١٢١
٣٣ ٣٥ ٣٨ ٤٤ ٤٦ ٥٤ ٥٩ ٦٣	بنيامين ١٧-١٩ ٦٣
٧١ ٨٠ ٨٦ ٨٧ ٩٥ ٩٦ ١٠٠	بونيفاس الثامن ٥٧

حريّة ( الضمير والفكر والنظر ) ٣١	١١٩	١١٩	١١٥	١١١	١٠٨	١٠٥
١١٨ ١١٦ ١١٤ ١٠٨ ١٠٧ ١٠٥ ١٠٠	١٣٤	١٣١	١٢٧	١٢٥	١٢٣	١٢٠
١٣٩ ١٢٧	١٧٧	١٧٦-١٧٣	١٦٧	٥	١٦٦	
دريّفوس ( الفرد A. Dreyfus ) ١٤٢						١٧٩
دقلديانوس ٤٧ ٤٢ ٤٠ ٣٣	١٤٨	١٤٧	١٤٤	١٤١	١٣٨	
ديوان التحقيق ( أنظر محكمة التفتيش )						تعميد ( أصحاب ) ١٢١
الرازي ( زكريا ) ١٥٢						توركويمادا ٧٩ ٧١
الرازي ( فخر الدين ) ١٦٠ هـ	٥٥	٥٣	٥١	٤٥		تيودوسيوس
روجر وليامز ١١٥						جريجوري التاسع ٧٠
روسو ( جان جاك ) ١٣٦ ١٣٥ ١١١						جريجوري الثالث عشر ٩٠
ريشليو ٩٢	١٤٠	١٧٨				جريجوري السادس عشر
رينان ١٤١	١٧	١٦				جعفر بن أبي طالب ١٦ ١٧
زونجلي ١٣٩ ١٠٤ ٩٥ ٨٧						جوستين ٣٧ ٣٦
زيد بن حارثه ١٦ ١٦١						جيمس الاول ٩٣
سرفيتوس ١١٤ ١٠٦ ١٠٥ ٩٩	٨٨	٨١	٦٦	٥٧	٣٥	الحرمان ( الكذبي )
سكستوس الرابع ٧١	٦٧	٦١	٤٢	٣٣	٣٢	٨٧
سوسينوس ١١٤ ١٠٦ ١٠٤	١١٣	١١١	١٠٨	١٠٦	١٠٢	٩٢ ٩١ ٨٥
شاتليون ( أنظر كاستليو )	١٢٧	١٢٦	١٢٤	١٢٢	١٢٠	١١٨ ١١٦
شارلمان	١٥٦	١٤٧	١٤٣	١٤١	١٤١	١٣٧
شاندييه ١٢٤						١٧٩ ١٧٤ ١٦٩ ١٦٦



كليمان الاسكندري ٣٩ ٣٨	شلنجويرث ١١٨ ١١٩ ١٢١ ١٦١ ١٧٤
كويرنيكوس ١٠٧	الشيرازي «علي محمد» ٢٢
كويكرز ١١٥ ١١٧ ١٢٠	صوآب الحبشي ٢١
لاكاتيوس ٤٧ ٥٦	الصوصنية ١١١ ١١٣ ١١٥
لوثر (مارتن) ١٠١ ٩٩ ٨٧ ٨٦ ٨٤	الصهبونية ١٤٢
١٤٠ ١٣٩ ١١٤ ١١٢ ١٠٧ ١٠٥ ١٠٢	طه حسين ١٥٧
لوك (جون) ١٤١ ١٢٦ ١٢٣ ١٢١ ١١١	طلحه بن أبي طلحه ٢١
لوبس التاسع ٧٠	عبد الجبار (المختب) ١٥٠
لوبس الخامس عشر ٩٣	عبد الرزاق (علي بك) ١٥٧
لوبس الرابع عشر ٩٢ ١٧٧	عبد الرزاق (المغفور له مصطفي باشا) ٣
ليبانيوس ٥٣	غاندي ٣١
ليكيذوس ٥١	فردريك الأكبر ١٣٣ ١٣٦ ١٣٩
ليو الاكبر (البابا) ٤٣	فردريك الثاني ٧٠
مارتن (القديس) ٥٦	فولتير Voltaire ١٣ ١٤ ٩٣ ١١١ ١٢٥
ماركوس (اورليوس) ٣٧ ٣٦	١٢٧-١٢٩ ١٣١-١٣٦ ١٣٩
المانوية ١٤٨ ١٤٩ ١٥١ ١٥٢	فيليب (أمير هس) ١٠٣
محكمة التفتيش ٥٢٧ ٥٧ ٦٦ ٧٦ ٧٨	فيليب الثاني ٨٧ ٩٠
١٤١ ٨٨	قسطنطين ٤٢ ٤٤ ٤٥ ٤٨ ٥١ ٦١
مجمع (مجلس ديني) : افسوس ٥٢ ٥	قيرس ١٨ ١٧ ٦٣
أفينون ٦٦	كرمويل ٩٤ ١١٧
خلقيدونيه ١٧ ١٨ ٦٣	كلفن Calvin ٨٤ ٨٩ ٩٥ ١٠٠ ١٠٣
الفانيكان ٢٩ ٩١	١٠٥ ١٠٦ ١٠٨ ١١٢ ١١٤ ١٣٦ ١٣٩

المهتدون (أنظر البرسبيريون)	تابع لمجمع :
مؤامرة البارود ٩٤ ٩٣	كذستانس ٨٤ هـ
الموحدون ١٢٣ ١٢٠	لانران ٦٦
مونتاني Montaigne ١٢٧ ١٢٤	ميلان ١١٣
ميرابو ١٣٧	ورمس ٨٣
نيرون ٣٤ ٣٣	محمد عبده (الامام) ١٥٥ ١٥٤ ١٤٧
الهادي ١٥٢-١٥٠ ١٤٧	١٥٦
هارنجتون ١٢١ ١١٨ ١١٧	مذبحة : الالبيجين أو الالبيين ٥١ ٤٦
هرقل ٦٣ ١٧	١٧٦ ٧١ ٦٩ ٦٦ ٦٤
هنري الثاني ٨٩	سان بارتلميو ١٦٩ ١٥٤ ٩١ ٨٩
هنري الثالث ٩١	الشيعة ١٥٣ ١٤٧
هنري الخامس ٧١	مرسوم نانت ١٢٧ ٩٣ ٩٢
هنري الرابع ١٢٧ ٩٢ ٩١ ٧١	المقوقس ١٩ ١٨
هوز (توماس) ١٢٢ ١٢١	ملانكتورف ١٠٦
هوس (جون) ٨٤ هـ	ملتون ١١٨ ١١٧
هند بنت تقي ٢٦	الملكانيون ٨ ٦٤ ٦٣ ١٨
وحش الحبشي ٢٦	المنصور (جعفر) ١٤٩
الوفد المصري ١٤٣	منكر والتعميد (أنا بابتست Anabaptists)
ويكلف ٨٤ هـ	١١٥ ١١٤ ١١١ ١١٥



# فهرس

إهداء الكتاب  
قرآن كريم

١ - مقدمة الكتاب ص ٧-٣٢

٧ تمهيد - ٨ علاقة هذا الكتاب بكتابتنا عن النزاع - ١٠ من قوانين الايمان -  
١١ براءة الأديان من تبعات الاضطهاد - ١٢ إمكان الجمع بين الايمان والتسامح  
- ١٣ ضرورة الابقاء على الايمان - ١٤ لا يملك العدالة متعصب ذو نفوذ -  
١٥ من خصائص الغلو في الايمان - من شهداء الاسلام - ١٧ من شهداء  
المسيحية الشرقية - ١٩ من شهداء البروتستانت - ٢١ من قتلى قريش - ٢٢  
من شهداء البابية - ٢٤ ظل الانسان إلى إهراق الدم - ٢٥ الشغف بالدم عند  
نساء قريش - ٢٦ الشغف بالدم في الثورة الفرنسية - ٢٧ في محارق محاكم  
الافتيش - ٢٨ استعلاء الجانب الحيواني في الثورات - ٢٩ حق رجال الدين في  
دفع الكفر - ٣٠ قيام الحق لا يتطلب الاضطهاد - ٣١ الاضطهاد عدوان  
على حرية الضمير

(١) الاضطهاد الديني ص ٣١-١١٠

١ - اضطهاد المسيحية ص ٢٣-٤٤

٣٣ أسباب اضطهادها - ٣٤ اضطهاد نيرون للمسيحية - ٢٥ حركة  
الاضطهاد في القرن الثاني - ٣٥ دفاع المسيحيين عن دينهم - ٣٧ بغض هؤلاء  
المدافعين للحضارة الرومانية - ٣٨ القرن الثالث بين الاضطهاد والتسامح -

٤. اضطهاد المسيحيين في عهد دقلديانوس - ٤١ انتصار المسيحية على هذا  
الاضطهاد - ٤١ تبرير اضطهاد الرومان للمسيحية - ٤٢ التسامح وبدء نفوذ  
الكنيسة في روما - ٤٤ تعقيب

٣ - الاضطهاد في المسيحية ص ٤٥ - ٦٨

٤٥ - أثر الاضطهاد الاسرائيلي في الاضطهاد المسيحي - ٤٦ نزوح الآباء  
الأولين الى التسامح - ٤٨ الاضطهاد في المسيحية - ٤٩ - الشقاق في داخل  
الكنيسة - ٥١ اضطهاد قسطنطين للملحدين - ٥٢ من آثار الاضطهاد في  
القرن الرابع - ٥٢ اضطهاد تيودسيوس للملحدين - ٥٣ من عوامل نمو  
الاضطهاد - ٥٥ بدء الاعداء في المسيحية - ٥٥ موقف الكليروس من إعدام  
الملحدين - ٥٧ القديس أوغسطين ومكانته - ٥٩ انتصاره للاضطهاد - ٦١  
عقيدة الخلاص والاضطهاد - ٦٢ اضطهاد المسيحيين بعضهم لبعض في مصر  
- ٦٤ الادعاء للكنيسة وانتفاء الاضطهاد - ٦٦ عودة الكنيسة الى مقاومته  
الروح الجديد - ٦٦ مذبحة الألبيجيين - ٦٧ تعقيب

٤ - محكمة التفتيش في العالم الكاثوليكي ص ٦٩ - ٨٢

٦٩ - - نشأة محكمة التفتيش - ٧٠ من نظام محكمة التفتيش - ٧١ محكمة  
التفتيش في أسبانيا - ٧٢ لماذا انتصر الاضطهاد على الاسلام في أسبانيا - ٧٢  
أساليب محكمة التفتيش مع خصومها - ٧٤ من آثار محكمة التفتيش - ٧٥ من  
وجوه التعذيب عند محكمة التفتيش - ٧٦ إثارة الألم والهلع في النفوس - ٧٨  
إحصاء ضحايا محكمة التفتيش - ٨٠ بين اضطهاد الحقيقة العلمية والعقيدة الدينية  
٨١ تدرج الكنيسة من الرحمة الى التنكيل



ص ٨٣ - ٩٨

## ٥ - اضطهاد البروتستانت

٨٣ تهجم المصلحين على الكنيسة - ٨٥ بواعث اشتداد النزاع بين المعسكرين -  
٨٦ الحروب الدينية في المسيحية - ٨٦ بدء النزاع بين البابوية والبروتستانت -  
٨٧ الحروب الدينية التي أثارها فيليب الثاني - ٨٩ مذبحه سان بارتلميو - ٩٠  
فرنسا بعد المذبحة - ٩١ البروتستانت بين التسامح والاضطهاد - ٩٣ النزاع في  
انجلترا منذ قيام الاصلاح الديني - ٩١ تأمر الكاثوليك على نسف البرلمان - ٩٤  
اضطهاد الكاثوليك - ٩٥ حرب الثلاثين عاما - ٩٥ مبررات اضطهاد البروتستانت  
٩٦ حقيقة البروتستانت والاضطهاد - ١٧ موقف المسيحية السمحاء من هذا  
الاضطهاد .

ص ٩٩ - ١٠٨

## ٦ - الاضطهاد عند البروتستانت

٩٩ نصيب العقل في حركة الاصلاح الديني - ١٠٠ الاصلاح والمنطق الديني  
١٠١ بواعث الاصلاح الديني - ١٠٢ نبعات الكاثوليك والبروتستانت في الدعوة  
للاضطهاد - ١٠٣ حماسة البروتستانت للاضطهاد - ١٠٤ دعوة لوثر للاضطهاد -  
١٠٥ موقف البروتستانت من احراق سرفيتوس - ١٠٧ البروتستانتية وحركات  
النور - ١٠٨ تعقيب

ص ١٠٩ - ١٧٠

## التسامح الديني

ص ١١١ - ١٤٣

## ٧ - فجر التسامح الديني

١١١ مساهمة الاصلاح الديني في تأييد الحرية الدينية - ١١٣ فضائل  
العصوية على ابتداء الحرية الدينية - ١١٥ الفصل بين السلطتين عند  
منكري التعميد - ١١٦ بدء التسامح في إنجلترا - ١١٨ رواد التسامح في  
انجلترا - ١٢١ التسامح الديني في فلسفة لوك - ١٢٣ التسامح في إنجلترا

بعد القرن السابع عشر — ١٢٤ تداعي الاضطهاد في فرنسا بظهور الشك -  
١٢٥ رواد التسامح في فرنسا - ١٢٨ حملة فولتير على التعصب الديني - ١٢٩  
دفاع فولتير في قضايا التعصب : مأساة جان كالا - ١٣١ دفاع فولتير في هذه  
المأساة ١٣٢ دفاعه في مأساة سيرفين ١٣٤ حقيقة التسامح عند فولتير - ١٣٥  
موقف روسو من الاضطهاد ١٣٦ التسامح المطلق في الثورة الفرنسية - ١٣٨  
مغزى تاريخ التسامح في إنجلترا وفرنسا - ١٣٩ انتصار التسامح الديني في روسيا  
في القرن الثامن عشر - ١٤٠ أثر ألمانيا في غيرها من الدول - ١٤١ قيام الحرية  
الدينية في أوروبا في القرن الثامن عشر - أسباب اضطهاد اليهود - ١٤٣ تعقيب

#### ٨ - الإسلام والاضطهاد ص ١٤٥ - ١٧٠

١٤٧ بواعث الاضطهاد في الاسلام - ١٤٨ معنى الزندقة في الاسلام -  
١٥٠ فشو الزندقة في العصر العباسي - ١٥٠ اضطهاد المهدي والهادي للزندقة  
١٥٢ اضطهاد الزنادقة بعد الهادي ١٥٣ استئصال القرامطة - ١٥٤ مذبحة  
الشيعة - ١٥٤ من آثار الجهاد في العصر الحديث - ١٥٥ نماذج من شكوى  
الأستاذ الامام الجواد في وقتنا الحاضر ١٥٧ اتهام الفاروق باضطهاد الذميين - ١٥٨  
الاستشهاد في القرآن الكريم - ١٦٠ الاستشهاد عند رسول الله - ١٦١ حب  
المؤمنين للاستشهاد في سبيل الله ١٦٢ القتال المباح في الاسلام - ١٦٤ الجهاد  
في الاسلام - ١٦٤ الحرية في الاسلام - ١٦٦ موقف الاسلام من الذميين -  
١٦٧ سماحة الفاروق مع المسيحيين - ١٦٨ أسباب ما أسلفناه من وجوه الاضطهاد  
١٦٩ تعقيب .

#### ٩ - كلمة أخيرة ص ١٧١ - ١٨١

١٧٣ بدء التسامح الديني - ١٧٣ مراحل التسامح - ١٧٤ أثر المذهب العقلي



في تقويض الاضطهاد - ١٧٥ انتفاء العدالة باجتماع التعصب والسلطة - ١٧٥  
مقى ينجح الاضطهاد ومقى يفشل - ١٧٦ التسامح الديني بين المدينة الاوربية  
والقرآن الكريم - ١٧٧ استمرار التعصب الديني في اوربا الحديثة - ١٧٨  
موقف مصر الحديثة من الاضطهاد - ١٧٩ موقف المسيحية من التعصب في اوربا  
١٨٠ تبعة النصوص المقدسة في الاضطهاد.

مصادر الكتاب	ص ١٨٢ - ١٨٤
كشاف بأهم الأعلام والاصطلاحات	ص ١٨٥ - ١٨٨
فهرس الكتاب	ص ١٨٩ - ١٩٣
كتب المؤلف	ص ١٩٤ - ١٩٥

## ما نشر من كتب المؤلف

السلسلة الفلسفية والاجتماعية : ( ظهر منها أربعة كتب قامت بنشرها . مكتبة الآداب )

١ - قصة النزاع بين الدين والفلسفة :  
بحث في تاريخ هذا النزاع في المسيحية  
والاسلام ، مع رده الى بواعثه وأسبابه ، والكشف  
عما نجم عنه من آثار ، وبيان وجه العطف في  
أمره .

٢ - التصوف في مصر إبان العصر العثماني :  
بحث في التصوف الذي استبد بهوى مصر  
في ذلك العصر ، مع بيان أثره في توجيه الحياة  
المصرية ، وهو محاولة أريد بها أن يفسر التاريخ  
المصري .

٣ - علم الغيب في العالم القديم Divination :  
ترجمة بحث وضعه مايشرون Cicero وناقش  
فيه فنون التنجيم والصنم والتنبؤ الطبيعي عند  
القدماء - ومع الترجمة العربية شرح للاصل  
وتعليق عليه .

٤ - الأحلام :  
دراسة مقارنة للمذاهب الاسلامية في موضوع  
الأحلام مع ردها الى أصولها في التراث اليوناني  
والشرقي القديم ، وبيان مايقابلها عند المحدثين من  
علماء النفس .

نم كتب ظهرت في سلسل أخرى

٥ - قصة الاضطرهاد الديني :  
قامت بنشره دار الفكر العربي وهو  
الآن بين يدي القاري .

٦ - التنبؤ بالغيب عند مفكري الإسلام :  
بحث في فنون التنبؤ الطبيعي والتنجيم  
الصنم عند مفكري الاسلام فلاسفة وصوفية  
ورجال دين - وقد صدر في سلسلة مؤلفات  
الجمعية الفلسفية .



٧- الشعرائي إمام التصوف في عصره :  
بحث في أعظم صوفي عرفه العالم الاسلامي  
في القرون السبعة الاخيرة فيما يقول المستشرق  
نيكسون- وقد صدر في سلسلة أعلام الإسلام .

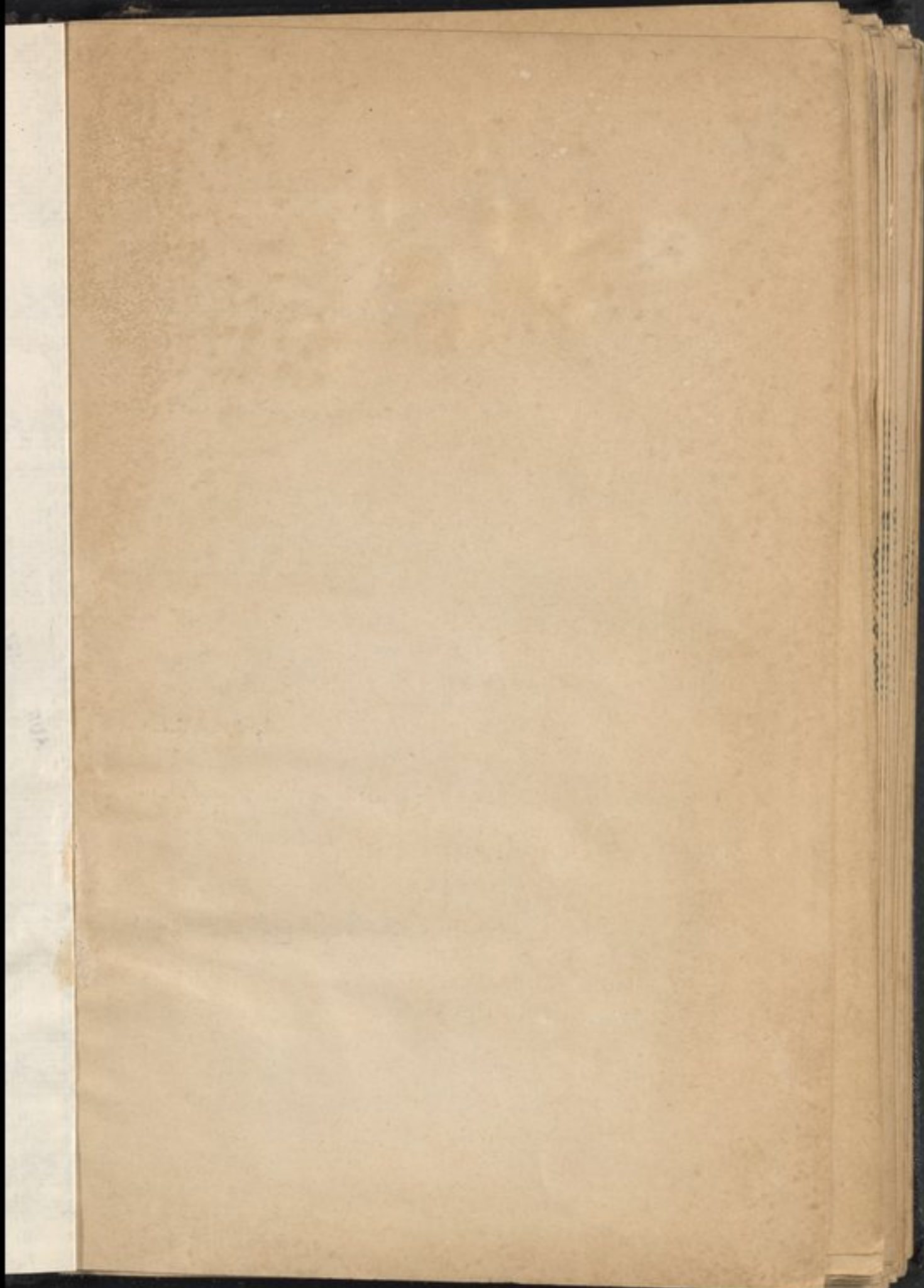
٨- قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة :  
سيرة التضال الدامي الذي انتهى بأروع  
مأساة عرفها تاريخ الدنيا : فناء أمة في ساحة  
الجهاد - أصدرت الطبعة الأولى لجنة الجامعيين  
لنشر العلم ، وأصدرت الطبعة الثانية مكتبة  
الآداب .

٩- تراث الإسلام  
The legacy of  
Islam  
مجموعة أبحاث وضعها أعلام المستشرقين  
عن فضل التراث الاسلامي على الحضارة الاوربية  
- أصدرت لجنة الجامعيين لنشر العلم جزءين منه .  
المؤلف فيه ترجمة الجزء الذي وضعه أ . حيوم عن  
الفلسفة والآليات مع الشرح والتعليق .

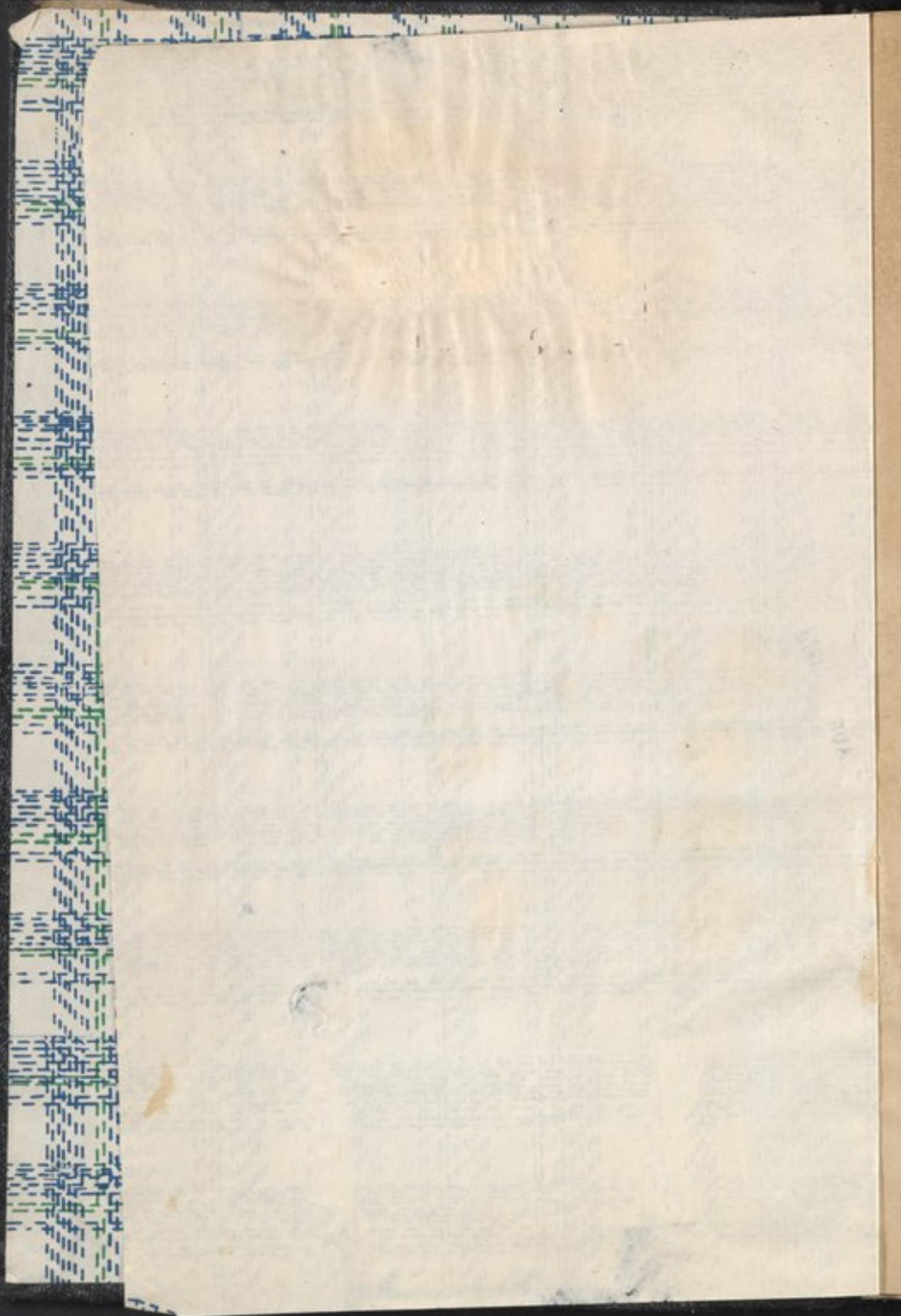
### الكتابات الايمان

١٠- الابستمولوجيا أو نظرية المعرفة :  
المعرفة البشرية وما هيبتها ، وعرضت لدراسة أصولها  
وأدواتها ؛ تناولت بالبحث إمكان قيامها أو النك  
في وجودها .  
Epistemology

١١- المجلد في تاريخ علم الأخلاق  
ترجمة وتعليق بالاشتراك مع الزميل الأستاذ  
عبد الحميد حمدي ( تأليف الدكتور سدجويك  
H. Sidgwick أستاذ الفلسفة الخلقية في جامعة  
كبروج - صدر الترجمة العربية في جزئين )









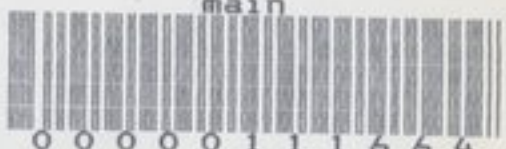
LAIE DUE

BR 1600 T3x 1947

al-Tawiiq, Tawfiiq  
Qissat al-idtihaad al-dii  
nii fii al-Masiihiyyah wa  
BR 1600 T3x 1947



DEC 1957



main

0 0 0 0 0 1 1 1 6 6 4

BR 1600 T3x 1947



